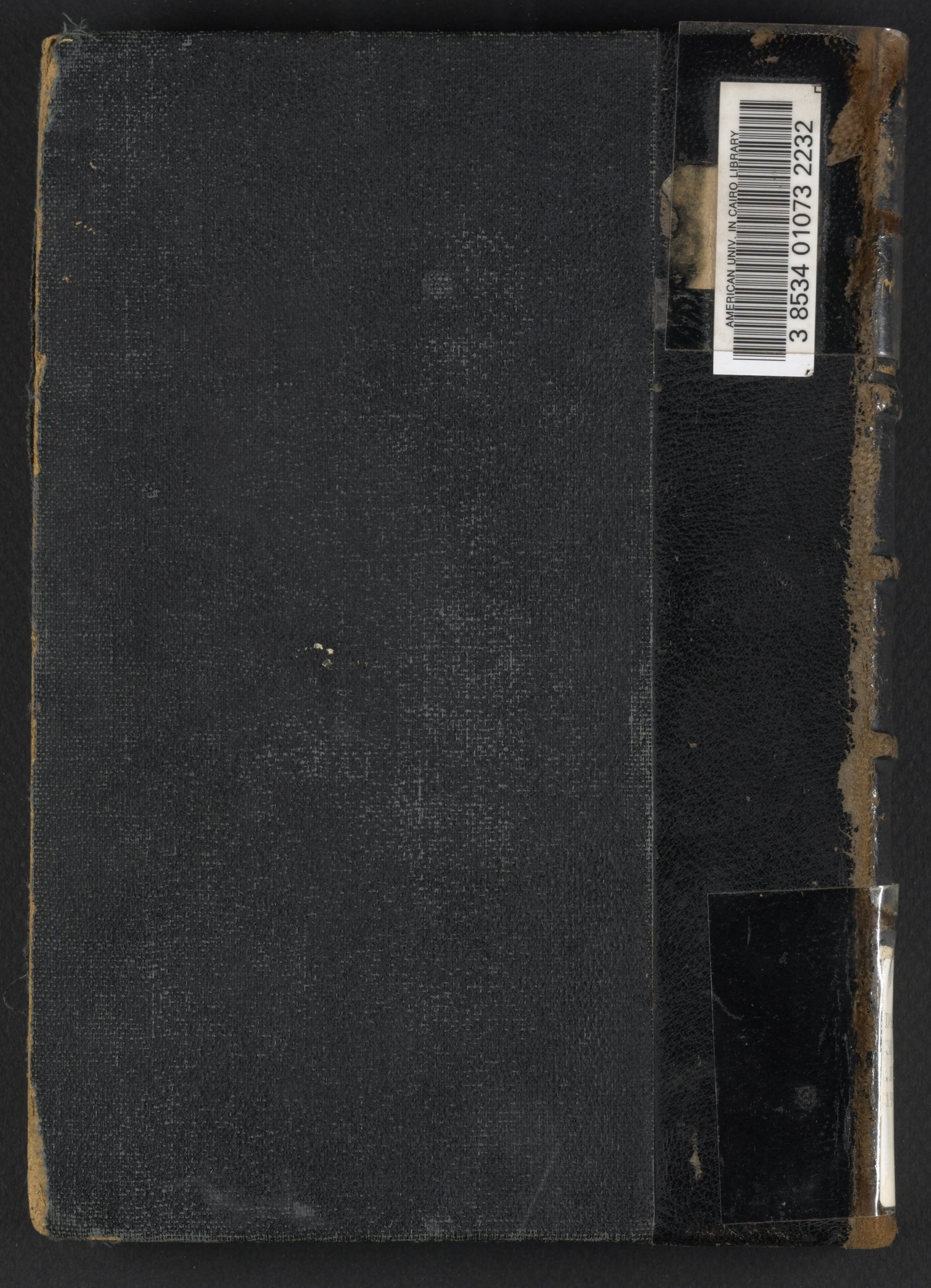
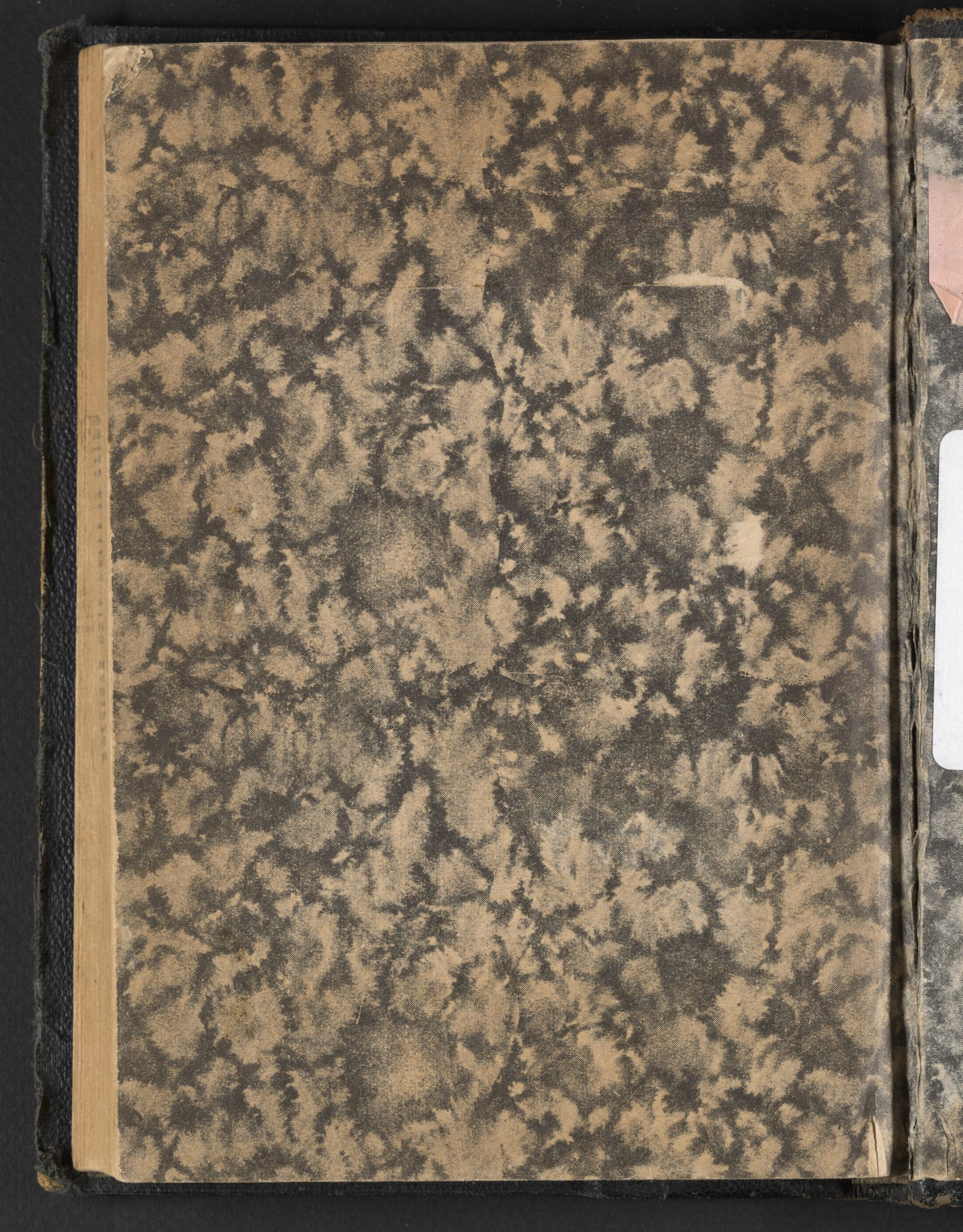
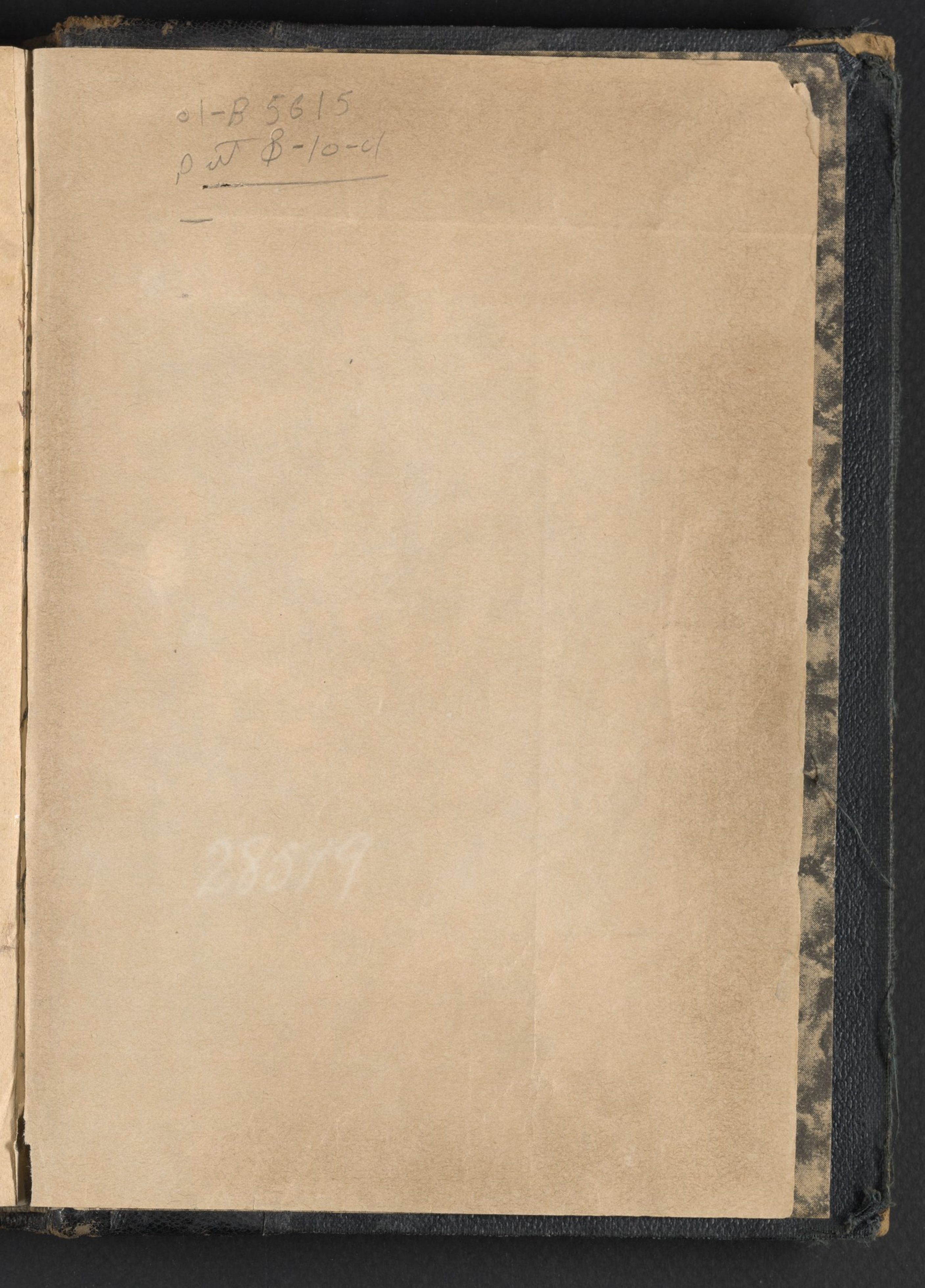

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01073 2232





كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

٣

الأتراك العثمانيون وحضارتهم

نقله الى العربية

الدكتور نبيه أمين فارس
رئيس دائرة التاريخ
في جامعة بيروت الاميركية

منير البعلبكي
استاذ الادب العربي
بكلية البنات الاهلية في بيروت

ط (١)
١٩٤٩

دار العلم للملايين - بيروت

الطبعة الاولى
تموز ١٩٤٩
بيروت

مقدمة

هذا هو الجزء الثالث من « تاريخ الشعوب الاسلامية » لشيخ المستشرقين الالمـــان الاستاذ كارل برو كلمان نزفه الى المشتغلين بالدراسات التاريخية خاصة ، وإلى جمهرة المثقفين العرب عامة بعد أن قدّمنا اليهم الجزأين الاول والثاني من هذا السفر النفيس ، منذ زمن قريب .

ولعلّ من الخير ان ننصّ هنا على أننا ما كدنا نبدأ العمل في نقل هذا الجزء الثالث عن الترجمة الانكليزية للأصل الألماني ، حتى ظهرت الترجمة الفرنسية في باريس ، وفيها بعض التعديلات بقلم الاستاذ برو كلمان نفسه ، فسارعنا الى إعادة النظر في ما نقلناه ، على ضوء النسخة الفرنسية المنقحة ، ثم اخذنا انفسنا بالترجمة عن كلتا النسختين الانكليزية والفرنسية في وقتٍ معـــاً ، معتمدين النسخة الانكليزية في الاساس ، مفيدين من جميع التعديلات التي ادخلها المؤلف على النسخة الفرنسية . ففي حيثما افترقت ترجمتنا العربية هذه عن النسخة الانكليزية كان مردّ ذلك الى أننا اعتمدنا النّص الفرنسيّ المنقّح .

ولم نكتف بهذا . بل عارضنا الترجمة العربية عـــلى المصادر

الأولية ، فعلنا في الجزأين الاول والثاني . ففي حيثما افترقت ترجمتنا هذه عن كل من النسختين الانكليزية والفرنسية كان مردّ ذلك الى أخذنا بما ورد في تلك المصادر . وقد وجدنا ضرورياً في بعض الأحيان ان ندخل إضافات تفسيرية على الأصل ، وهي تظهر في المتن محصورةً بين مُعقّفين [ ] ، وفي الهامش مرفقةً بالنصّ على انها من وضع المعرّبين . أما الهوامش التي وضعها المؤلف أصلاً فقد قيّدناها برقم متسلسل .

وبصدور الجزء الثالث يكون قد بقي من هذا السفر الجليل جزآن ، يدرس اولهما « الاسلام في القرن التاسع عشر » ويبحث ثانيهما في « الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية » ، وسنخرجهما ان شاء الله في وقت قريب ، وبذلك تتمّ للقارىء العربي - لأول مرّة - موسوعة تستغرق تاريخ العرب والمسلمين منذ اقدم العصور حتى يومنا هذا .

المعربان

أصول الامبراطورية العثمانية واتساعها
حتى عهد سليمان الأول

٥

بينا كانت جمهرة كبيرة من القبائل التركية ، لا تزال تختصم ، حوالى منتصف القرن الثالث عشر ، على بقايا الخلافة – هذه الخلافة التي أقامها العرب ، وسعى الى تقويضها الفرس ، وأجهز عليها المغول – نشأت في الجزء الشمالي الغربي منها ، في آسية الصغرى ، تلك الدولة التي قُدّر لها ان تعمّر أطول من سائر الدول التركية ، وان تنتهي الى ان تتولى قيادة العالم الاسلامي نحواً من خمسمائة عام[1] .

والواقع ان المنازعات بين الغزاة من المسلمين والمرتزقة من البيزنطيين ، على تخوم سورية وآسية الوسطى ، لم تنقطع طوال

---

(١) انظر كوبريلي M. F. Kôprûlû , *Les Origines de l'Empire Ottoman*, Paris 1935 .

وانظر ويتك P. Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire*, London , 1938 .

وانظر ايضاً جبونز H. A. Gibbons, *Foundation of the Ottoman Empire, History of the Osmanlis, 1300 - 1403*, Oxford, 1916.

قرون بتمامها ، وكانت الغلبة تكتب للمسلمين حيناً ، وللبيزنطيين حيناً ، ولكن احداً من الفريقين لم يحقق نصراً حاسماً على خصمه. وكانت قد نشأت على هذه التخوم جماعة تتألف من مجاهدي المسلمين وعساكر الروم استطاعت برغم العداء القائم بين المسيحية والاسلام، اللذين تفرّقا شيعاً مختلفة وطوائف متباينة ، ان تغذو مبادىء متشابهة في الفروسية ، وان تمكّن للتبادل الثقافي بين الدّينين . وعندما رفع السلاجقة قواعد امبراطوريتهم ، حاول ألب أرسلان ان يعزّز حدودها بهجوم شنّه على الاناضول . فهزم ، على النجاد الارمنية ، قوات الامبراطور البيزنطي رومانوس * ديوجين قرب مَلازْكِرْد ** ، عام ١٠٧١ ، واقتاده اسيراً . وعلى الرغم من انه لم يفكر في الاحتفاظ بثمرة نصره هناك ، مطلقاً سراح أسيره بعد ان عقد معه معاهدة صلح شريف ، فقد أدى هذا النصر ، الى قيام حالة جديدة ، بالكلية ، في مقبلات الايام .

سليمان السلجوقي في آسية الصغرى

ونشأت في المناطق الواقعة على التخوم [الثغور] في جبال طورُس وقيليقيَة ، إمارات ارمنية مستقلة انتهت بعد الى ان تؤلف مملكة إرْمينية الصغرى . وفي مَلَطْيَة طرد جبريلُ الرومي الحكام المتحدرين من اصل ارمني ، والمنشقين على بيزنطة ، وكان جبريل هذا قد انتزع من خليفة بغداد نفسه اعترافاً بولايته

* « ارمانوس » في المصادر . [المعربان]

** وجاءت ايضاً على منازكرد . [المعربان]

على البلاد . ومهما يكن من شيء ، فقد كان في ضعف الثغور ، بعد ان تخلت العاصمة عن حمايتها ، ما شجّع الاتراكَ على شن غزوات جديدة ، ايضاً . وكان ُقتلُمِش ، أحد انسباء ألب ارسلان ، قد خلع طاعته ، سنة ١٠٦٣ ، ثم ُقتل في الميدان . وفي سنة ١٠٧٢ بعث ملكشاه بن ألب ارسلان وخليفته بسليمان ابن قتلمش الى آسية الصغرى ابتغاء إقصائه عن مركز الامبراطورية مع العصابات التركية التي كانت لا تزال تطوّف في طول الامبراطورية وعرضها ، معرّضة أمنها وسلامتها للخطر . وانتزع سليمان ، في هجوم جريء ، الجزء الشمالي الغربي من آسية الصغرى من ايدي البيزنطيين ، واتخذ نِيقِيَة مقراً له ، سنه ١٠٨١ ، فهو يهدد منها بيزنطة نفسها ، ولم تكن تبعد عنها الا قليلاً . ولكنّ المسلمين ما لبثوا ان خسروا هذه القاعدة الأمامية القصوى اثناء الحملة الصليبية الاولى . وأياً ما كان فقد ظل الهدف الحقيقي الذي يرمي اليه سليمان هو التوسع في الشرق والانتهاء الى مركز من السلطة فيه . فما وافت سنة ١٠٨٤ حتى استولى على انطاكية ، ليُصْرع بعد ذلك ، سنة ١٠٨٦ في هجومٍ شنّه على حلب . ولقد سعى ابنه قِلِج أرسلان الى ان ينشيء لنفسه قاعدةً جديدة في الجنوب الشرقي من آسية الصغرى ، ابتغاء إنفاذ الخطة التي رسمها أبوه . فاصطدم هناك بزعيم تركي اسمه دانِشْمَنْد ، ولعله يتحدّر من أصل أرمني . وبمساعدة عصابات مؤلفة من الاتراك المقاتلين في الثغور استطاع دانشمند هذا أن يمكّن لنفسه في سِيواس التي تخلى عنها البيزنطيون ، وان يبسط سلطانه في اتجاه الشمال حتى أَنْقِرَه

واماسِيَه ونكسار ، وفي اتجاه الجنوب حتى ألبِستان . وفي سنة ١١٠١ انتزع مَلطية من جبريل بعد ان اخفقت محاولة بوهمند الى انقاذه . وإذ لم يخطر له على بال أن يركّز سلطته ، القائمة على اساس السلب ليس غير ، في حكومةٍ مستقرّة فقد انحلت هذه السلطة عندما أعاد البيزنطيون ، يساعدهم الصليبيون ، ضمّ غربيّ الاناضول الى امبراطوريتهم . ولكن قِلِج أرسلان لم يوفق الى الاستيلاء على ملطية والتمكين لنفسه في مَيّافارِقين إلا بعد وفاة دانشمند سنة ١١٠٦ ، ليسعى من هناك ، شأن أبيه من قبله ، الى ان ينشىء منطقةً جديدة لنفوذه في الشرق. والواقع أنه لقي حتفه فيما هو يتقدم الى الموصل ، سنة ١١٠٧ ، في معركة نشبت على ضفاف الخابور .

خلفاء سليمان

بعد ذلك ، قصر خلفاؤه نشاطهم على آسية الصغرى . فاستولى ابنه مسعود على قونِيَه التي سبق للامبراطور [فردريك] بربروسا الألماني أن احتلّها طوال اربعة عشر يوماً (١٨ — ٢٦ نوّار سنة ١١٩٠) قبل أن قضى نحبه في لجج نهر اللامِس في قيليقية بينا كان يتقدم نحو البلاد المقدّسة في الحملة الصليبية الثالثة . والحق أن السهل المنبسط بين قونيه وقَيسارِيَة (قَيصَرية) وهو جدّ خصيب اذا احسِن ريّه ، وينزله قومٌ من الروم لمّا يتأثروا باهل الثغور - يسّر له ولخلفائه قاعدةً لانشاء دولة اسلامية سمحت لرعيتها بأن تُقيم على دينها وتحيا حياتها الثقافية الخاصة ، فعل خلفاء المسلمين من قبل ، لكي تضمن للفاتحين ، من

موارد جهودها ، ما يساعدهم على الانفاق عن سعة . وظلت مملكتهم تدعى « الروم » ، بوصفها أرضاً بيزنطيةً قديمة ٢ . ثم ان ابن مسعود ، قلج أرسلان الثاني ، وفّق اخيراً ، بهجوم مباغت شنّه في مجاز چارداق ، الى ان يصون حدوده من عدوان بيزنطة بعد ان هزم الامبراطور مانويل هزيمة ساحقة ، واكرهه على الصلح ، وكان [اي مانويل] يعمل ايضاً في سبيل استعادة سلطانه في الشرق . وبعد عدّة معارك مع خلفاء دانشمند ، اشترك فيها البيزنطيون وملوك « إرمينية الصغرى » ، انتزع منهم ملطية ، سنة ١١٧٧ وقضى على دولتهم سنة ١١٨٠ .

وفي عهد أولاده الذين عهد اليهم بادارة ممتلكاته وهو بعدُ على قيد الحياة ضعفت الدولة السلجوقية وتفسخت . حتى اذا تم تأسيس الأمبراطورية اللاتينية على يد فرسان الفرنجة ، في بيزنطة ، استغلّ كَيْخُسرو وابنه كَيكَاوُس ، ضعفَ هذه الاخيرة وبسطا سلطانهما في اتجاه الجنوب والشمال . ولقد استوليا على آطاليه (آنطاليه) وسِينوب وهما ثغران هامان يقع اولهما على البحر الابيض المتوسط ، وثانيهما على البحر الاسود . وبذلك انفتحت مملكتهما للتجارة العالمية ، واستطاعت بما عقدت من معاهدات تجارية ملائمة ، مع الجمهوريات الأيطالية ان تفيد من المقايضة بمحاصيلها الزراعية الوافرة . والواقع ان تدفق الثروة ، من جراء ذلك ، على البلاد مكّن الامراء من ان يرعوا صناعاتها

---

(٢) انظر ويتك P. Wittek, *Le Sultan de Rum*, in *Mélanges Boisacq*, Brussels , 1938 .

اليدوية الفنية ، ويشجعوا على نشوء فن زاهر من العمارة فيها .

وتمتاز العمارة عند السلاجقة بالواجهات الغنية الزخارف ، على الخصوص . فالمساجد والمدارس التي تم تشييدها في عهدهم تبدهُ الناظر اول ما تبدهه بفخامة المداخل والأبواب . والواقع أننا نجد ههنا ، الى جانب الرسوم الهندسية وحواشي الخط ، صوراً تمثل ضروباً من النبات والحيوان ؛ وبذلك تحرّر الفن التركي الشعبي من نزعة الفنّ الاسلامي القديم ، الناشئة عن التجريد السامي ، الى تحاشي التصوير والتنكّر له . أما في البيئة الثقافية التركية فقد ظلت هذه الزخرفة الحيوانية مقصورة على المنشآت العامة غير الدينية ، من مثل سور قونية ، في حين استغرق الطرازُ نفسُهُ واجهاتِ الكنائس في اوروبة الغربية ، من طريق إرمينية والروسيا . ٣

ولكنّ الثروة عادت على السلاجقة بعواقب وخيمة أيضاً . ذلك بانهم انغمسوا في المتارف فلانت نفوسهم ، وانقطعت الأسباب ما بينهم وبين الخدمة العسكرية ، على تراخي الايام ، ليتخلوا عن صناعة القتال للمرتزقة من الروم والأرمن والعرب . وفي سنة ١٢٣٩ على عهد كيخسرو الثاني ، أعلن الشعب سخطه على استهتار الأمراء وتفسّخهم . ومهما يكن من شيء ، فقد قمعت الثورة التي قادها الدرويش بابا اسحق بقوة السلاح . ولكن المغول كانوا قد اقتحموا ، قبل ذلك ، أبواب آسية الصغرى ، وانزلوا بقوات

(٣) انظر ديز E. Diez, *Die Kunst der islamischen Vôlker*, p. 125 .

كيخسرو الثاني هزيمة شنعاء ، في قوز طاغ سنة ١٢٤٣ . ومع ذلك فقد استطاع كيخسرو أن يشتري استقلاله من المغول بجزية ثقيلة تعهّد بدفعها اليهم ، حتى إذا توفي سنة ١٢٤٥ ، ونشب النزاع بين ولدَيْه عزّ الدين وركن الدين توسط هولاكو بينهما ، جاعلاً الخط الممتد على طول نهر قِزِلْ إرْماق حداً يفصل ممتلكات كلٍ منهما عن الآخر . وحاول عزّ الدين ان يحالف مماليك مصر الذين وفقوا ، دون غيرهم ، إلى النجاح في مقارعة المغول ، فعوقب على ذلك بان حُرم ممتلكاته ، في حين أخضع اخوه لرقابة عامل مغولي يُعرف باسم « بَرْوانه » . وما هي إلا فترة يسيرة ، حتى خلع هذا العامل ركنَ الدين ، ليتفرّد بالحكم بوصفه وصياً على غياث الدين ابن ركن الدين. عندئذ استنجد الامراء الاتراك [بالسلطان] بيبرس الذي هزم المغول عند أَلِبسْتان ، سنة ١٢٧٧ ، واندفع فاتحاً حتى بلغ قيسارية . وإذ لم يُلف أي تأييد في البلاد فقد تعيّن عليه ان يغادرها في وقت قريب ، فلم يكن من « أباقا » إلا ان أنزل أشدّ العقاب بالامراء ، وبـ « بَرْوانه » ، لقعوده عن حرب بيبرس . وهكذا قضي نهائياً على استقلال المملكة .

إمارات الغزاة في غربي الاناضول

ولكنّ مُثُل الجهاد ما لبثت ان بُعثت من مرقدها ، في الثغور ، كرة اخرى ، إذ برح آسية الصغرى في اثر المغول عدةٌ من زعماء الدين ورؤساء الطرق الصوفية ونزلوا بلاد الاناضول . وهناك أحيوا فكرة الحرب المقدسة [الجهاد] ضد البيزنطيين ، في حين انهمك هؤلاء في استعادة سلطتهم على البلقان ، مفرّطين

بذلك في جانب الدفاع عن آسية الصغرى . وهكذا اجتاح الاتراك غربي آسية الصغرى ، من جديد ، واقام امراء الغزاة دويلات مستقلة في مختلف المقاطعات . فنزل القرَمانيون في ليقاؤنية القديمة وإيسوريا ، ونزل الكرْمِيانيون في كوتاهية ، واستقر الحِميديون في مِدِيسيه ، والصاروخان في مَغْنيسيه . ولم يُقض على هذه الامارات ، نهائياً ، إلا عند ظهور العثمانيين .

وبينما كان الغزاة السابقون يتقدمون برّاً ، نلاحظ ان واحدة من اقدم هذه الامارات واعظمها شأناً قد نشأت نشأة بحرية . فمن سواحل ليقية وبَمْفِلية اندفع الاتراك بزعامة قبيلة المنْتَشا ، ومساعدة رواد البحر البيزنطيين الذين فقدوا حيويتهم بعد انحلال الاسطول سنة ١٢٨٤ ، الى قاريا (مَنتشا) ، وتوغلوا في حوض نهر مَنْدَرْس ، ومن هذه السواحل التي احتضنت ،حتى في العصور القديمة ، دولة من دول القرصنة تهددت الامبراطورية الرومانية ذاتها بالخطر ، اجتاحوا شواطىء بحر إيجه ، بل فتحوا رُودِس ، واخضعوها لحكمهم حتى اخرجهم منها فرسان القديس يوحنا سنة ١٣١٠ [٤] . وإذ قد وجدوا انفسهم في مأزق صعب يهددهم باعظم الاخطار ، تحالفوا مع جارتهم الشمالية ، إمارة آيدين ، التي ظلت تشيع القلق والاضطراب في بحر إيجه ، الى ان وفق اهل البندقية الى عقد تحالف مع قبرس وفرسان القديس يوحنا فقضوا على

(٤) انظر ويتك P. Wittek , *Das Fürstentum Mentesche, Studie zur Geschichte Westkleinasiens im 13. - 15. Jahrhundert* (*Istanbuler Mitteilungen* , published by the Istanbul Section of the Archaeological Institute of the German Reich II) Istanbul , 1934 .

سلطتهم باحتلال إزمير سنة ١٣٤٤ .

العثمانيون

وكان العثمانيون من بين اولئك الاتراك الذين حملوا راية النضال ضد البيزنطيين ، فحظوا بنجـــاح خاص . وتذهب الرواية التي تعرض لنشأتهم إلى ان عشيرة قايي ، احدى قبائل الغُز" التركية ، اضطرت الى ان تتراجع في وجه المغول المجتاحين لاراضي خراسان وتلتمس الحماية من خوارزمشاه جلال الدين مَنكُبَرْتي الذي هداها الى المراعي القائمة في شمال غربي إرمينية . حتى اذا صُرع حاميهم ، عزم زعيمهم سليمان على العودة بهم الى نجاد آسية الوسطى ، بعيداً عن فوضى النزاع القائم بين الدويلات على ارض الحضارة القديمة . ولكنه لم يلبث ان قُتل فيما هو يضرب في البلاد ، عند مخاضة على الفرات قرب مشارف حلب ، فانقلب ابنه الثالث ، أرْطُغرُل ، بالقسم الاصغر من القبيلة ، على الاقل ، وهو يضم نحواً من مائة أسرة ، الى آسية الصغرى ، ليلتحق واياهم بخدمة علاء الدين الثاني السلجوقي ، سلطان قونية . فأقطعه علاء الدين المستنقعات الواقعة على الحدود ، قبالة البيزنطيين ، عند سُكُود في وادي «قَرَه صُو» (الفرات الغربي) وجبلي طُومانيچ وارمني طاغ ، وترك اليه توسيع ممتلكاته على حساب جيرانه النصارى . وتزعم الرواية ان ابنه عثمان ، المولود على ما هو متعارف ، سنة ١٢٥٨ ، فد نقل مقرّه منذ سنة ١٢٨٨ ، من سكود الى مَلانْجنون التى تقع أبعد الى الجنوب ، والتي فتحها وجعل اسمها « قَرَه جَه حِصار » .

ولكن هذه الرواية لا تثبت على النقد التاريخي . ففي نقوش

جامع بروسه الذي بناه اورخان بن عثمان سنة ١٣٣٤ نجد انه يلقب نفسه بمجرد « السلطان ، ابن سلطان الغزاة ، الغازي ابن الغازي مرزبان الآفاق ، بطل العالم » (ه). وهذا اللقب « سلطان الغزاة » هو الذي عُرف به احد معاصري ابيه ، أمير آيدين على ضفاف نهر مندرس ، بعد ان خلعه عليه احد زعماء المولوية في قونية . وعلى الطريقة نفسها ، سبق لعثمان ، والد اورخان ، ان تسلم من حميه أدَهْ بَالِي ، رئيس المشايخ الصوفية ، منطقة الجهاد والسيف بوصفه غازياً (مجاهداً في سبيل الله) . كذلك كان السلاطين العثمانيون في استانبول ، في ما بعد ، يقلدون سيف عثمان من قِبل امام جامع أيوب على القرن الذهبي ، وبذلك يتقبلون البيعة . فلما استأنف عثمان الحرب ضد البيزنطيين تقاطر اليه المجاهدون من ارجاء آسية الصغرى جميعاً ، ومن القبائل التركية على اختلافها . ولحق « الاخوان » – اي جماعات الصناع والتجار المنظمة على غرار الطرق الصوفية والمنتشرة لذلك العهد في طول آسية الصغرى وعرضها – بالمجاهدين الى الدولة الناشئة حيث خدموا المحاربين باستثمار غنائمهم . ويستبعد ان يكونوا قد قاموا بدورٍ رئيسي في تأسيس الدولة ، كما قد ظُنّ سابقاً . ثم أن العلماء تبعوهم كممثلين للحضارة الاسلامية . أما في شؤون المال فقد أثبت النصارى واليهود انهم ضرورةٌ لا يستغنى عنها ، شأنهم في جميع الدول الاسلامية .

(ه) انظر ويتك P. Wittek, *Deux chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum*, *Byzantion XI* (1936) 285-318, p. 315.

ومن « قره جه حصار » قاد عثمان شعبه القويّ ، الذي كانت ترفده القبائل التركية كلها ، على الدوام ، بعناصر جديدة تزيد في قوته وحيويته ، الى بحر مرمرا والبحر الاسود ، وفي اتجاه الغرب الى يني َشهر (يكي شهر) التي تسيطر على مخاضة نهر سقارية . وفي سنة ١٣٠٠ أقطع «قره جه حصار» لأبنه اورخان ، من جديد . وكان المغول منهمكين ، في تلك الاثناء ، في القضاء على سلاجقة قونية فلم يعكروا على العثمانيين صفوهم في اقصى الشمال الغربي من آسية الصغرى .

وكان عثمان على فراش الاحتضار في سكود عندما توج ابنه أورخان ، سنة ١٣٢٦ ، اعماله الكبيرة باحتلال بروسّه الواقعة على سفح الاولمبوس « كَشيش طاغ » . ثم انه دفن اباه في كنيسة القصر ، التي ُحوّلت للتو والساعة الى مسجد . ومن ذلك الحين اضحت بروسه مدينة العثمانيين المقدسة . وسرعان ما شيدت هنا ، في العاصمة الجديدة للمملكة ، منشآتٌ فخمةٌ رائعة . وليس من شك في أن اقدم مساجدها — أوْ ُلو جامع ، وهو يتألف من صحن بسيط ترتفع اروقته الخمسة على أساطين مربعة ، وتعلو كل رواق اربع قباب قائمة جنباً الى جنب — لم ُيبْن الا في عهد مراد الأول ، خليفة أورخان . وفي سنة ١٣٢٧ سقطت إزْ ِميد ايضاً في يد أورخان الذي عبّر ، بوصفه مسلماً صادقاً ، عن تقديره للمعرفة — تلك التي كانت رعايتها عنواناً من أعظم عناوين المجد عند الحكام المسلمين في جميع الأجيال — فانشأ أول جامعة عثمانية (مدرسة) وعهد في ادارتها الى داود القيصري ، احد العلماء الذين تلقوا

علومهم في مصر .

وحاول البيزنطيون استخلاص نيقيه * على الأقل ، ولكن الجيش الذي اسندوا اليه هـذه المهمة لم يلبث أن هُزِم عند طاوْشانْلي ** سنة ١٣٣٠ . وتعيّن علـى المدينة أن تستسلم للعثمانيين ، وما هي إلا فترةٌ حتى استعادت مكانتها كمركز لصناعة القاشاني ، ومقرٍ لعددٍ من معاهد التعليم . وفي سنة ١٣٣٥ تنازعت أسرة اورخان الملكية عرش دويلة قـرَه سي المجاورة (في مِيسِيَه القديمة)،وكانت عاصمتها بَرْغَمَه، فنشأت عن ذلك فرصة مواتيةٌ للتدخل في شؤون تلك البلاد . ولكنها لم تُخْضع نهائياً – في ما يبدو – حتى سنة ١٣٤٥ .

الادارة العثمانية في عهد أورخان

وسرعان ما ظهرت الحاجة مُلِحّةً ، الى تنظيم اكثر تماسكاً وإحكاماً. ولما كان الأمراء[٦] انفسهم يُرجعون حقوقهم الأقليمية الى إرادة صدرت من سلطان قونية باقطاعهم أرضاً بعينها ، كذلك كانوا هم بدورهم يُقطعون أبناء قبائلهم ومن أبلى بلاءً حسناً من رفاقهم في السلاح ، إقطاعاتٍ في البلدان المفتوحة ، لقاء تعهدهم بتقديم الفرسان للخدمة العسكرية . والحق أن هـذا الغرض العسكري من الاقطاعات كان يتمثل في دعوتها سناجق ، يعني

---

* « إزنيق » عند الاتراك .

** Philokrene [المعربان]

(٦) ظل الحكام العثمانيون يدعون انفسهم بالأمراء ، في كثير من الاحيان، حتى سنة ١٤٧٣ .

رايات . ولقد جعلت بروسه ، بعد احتلالها ، عاصمةً لسنجق جديد أقطع لوليّ العهد مراد وعُرف باسم «خداوَنْدِ» (ارض الحاكم). ثم انه نشأ في ما بعد سنجقان اولهما سلطان أُونو (سلطان اوكي) وينتظم مراكز العثمانيين القبَلية في الجنوب الشرقي وثانيهما قوجه إيلي ويشمل المناطق الساحلية في الشمال الغربي ، وقد دعيت باسم فاتحها وواليها الاول : آقچه قوجه .

وكانت النزعات الشيعية التي تتمثل في الدراويش ذوي النفوذ البعيد ، لا تزال تسيطر على الحياة الدينية عند العثمانيين ، سيطرةً مطلقة كالتي كانت لها في القبائل التركية الاخرى . وكان المفروض في قانون المملكة الشرعي ان يستند – نظرياً على الاقل – الى التشريع الالهي الذي جاء به القرآن والى السنّة كما تصورها احاديث النبيّ الشفهية ، ليس غير . ومع انّ الشيعة لم ترفض هي ايضاً هذه السنّة ، بحال من الاحوال ، فأنها على خلاف اهل السنّة ، بالمعنى الضيق المحدود ، لم تعترف بغير الائمة حملة لحديث الرسول ، ولم تأخذ برواية احد من المحدثين غير المنتسبين الى الدوحة النبوية ، في حين اعتدّ اهل السنة هؤلاء المحدثين ثقات كالمحدثين من آل البيت . ومهما يكن من شيء ، فلما كان هذان المصدران انفسهما لا يحيطان بمشكلات الحياة كلها ، هذه الحياة التي تعقدت اكثر من ذي قبل والتي انتهت الى ان تنهض على اسس اقتصادية تغاير الاسس القديمة بالكلية ، فقد تعين على الدولة ان تعترف ، علاوة على الشرع الالهي ، بقانون جديد يقوم على دعائم زمنية خالصة . ذلك بأن هذا الشرع الالهي ، كان ، حتى في ذلك الوقت ، أصلب

من أن يجرؤ احدٌ على تكييفه وفقاً للاحوال الجديدة ، بِفعل الفقهاء خلال القرون الاولى للهجرة . وهكذا نشأ « القانون » ، عند العثمانيين ، بالاضافة الى « الشرع الشريف » ؛ وقد أقرّ له ، منذ البدء ، بالقدرة على التطور ، واضاف السلاطين اشياء كثيرة اليه ، في ما بعد .

وإنما تُنسب اقدم القوانين غير الدينية الى اخٍ للسلطان أورخان اسمه علاء الدين . وقد اعتزل العالم ، على ما تقول الرواية . وهو في ميعة الشباب ، ثم انقلب الى البلاط واضعاً علمه بالقانون في خدمة الدولة . وهكذا جرى العرف على اعتباره اول وزراء الامبراطورية . ويقال انه انفق جهده ، بادىء الامر ، في معالجة شؤون ثلاثة : السكة (العملة او النقد) واللباس ، والجيش .

السكة

والواقع ان حق الامير المسلم في ان يضرب النقود باسمه كان يُعتبر منذ عهد طويل ، كالدعاء له على المنابر ، رمزاً الى استقلاله وسيادته . ولقد كان على الامراء العثمانيين ، بحكم تابعيتهم لسلاطين قونيه ، ان يسمحوا على اية حال لنقود هؤلاء السلاطين بحرية التداول في اراضيهم فترة طويلة من الزمان ، على الرغم من اهتمام الذين ارخوا للعثمانيين بالنص على انهم مارسوا حق ضرب النقود ، في عهد باكر جداً . ولكن الرواية القائلة ان علاء الدين لم يأمر بضرب النقود الفضية باسم اورخان حتى سنة ١٣٢٨ هي وحدها الرواية الموثوقة ، على التحقيق . ولقد جاءت هذه السكة الجديدة مماثلة للنقود التي ضربها السلاجقة على الغرار البيزنطي . والمعتقد

ان وزنها الكامل كان يبلغ ستة قراريط ، اي ما يعادل ربع الدرهم المتداول في البلدان الاسلامية الاخرى . ولقد أطلق على القطعة النقدية ، كما كان الحال في آسية الصغرى كلها ، اسم « آقجه » (قطعة بيضاء) ترجمةً لكلمة «البيضاء» (aspron) الشائعة في بيزنطة منذ القرن العاشر . واقدم ما حفظ لنا من هذه النقود يحمل على وجهه الاول كلمة الشهادة ، في حين يحمل على وجهه الثاني اسم الامير باللغة الدارجة « أوخان » * وهذا الدعاء : « خلد الله ملكه » . والجدير بالملاحظة اننا لا نقع في هذه النقود على ذكر لأسم الأب كما لا نقع على اشارة الى زمان الضرب ومكانه .

تنسيق اللباس

وقد يستولي الدهش على الغربي المحدث حين يسمع بمسألة تنسيق اللباس ، هذا التنسيق الذي كان واحداً من اقدم الأركان التي قامت عليها الدولة العثمانية . بيد ان اللباس كان في الحضارات القديمة لازماً من لوازم الشخصية الاساسية – شأن الزي العسكري الموحد اليوم – لا مجرد مظاهر ضرورية ، ولكنها خارجية ، تعتمد في الغالب على ذوق لابسها . والحق ان اللباس لا يميز الطبقات الاجتماعية ، بعضها من بعض ، فحسب ، ولكنه يميز بعض الشعوب من بعضها الآخر ، ايضاً . واذ كانت حقوق الشعوب في الدولة الاسلامية متفاوتة الى ابعد حدود التفاوت ، فلم يكن في وسع الشارع الا ان يعنى بفوارقها الظاهرة ايضاً . وكما ميز الطربوش

---

* سقطت الراء من اورخان لان اللهجة التركمانية العامية كثيراً ما اهملت لفظها او اختلستها . [المعربان]

الرجل العثماني من الرجل الاوروبي ، منذ اصدر محمود الثاني امره باصطناعه الى ان الغاه مصطفى كمال سنة ١٩٢٥ ، وكما لا يزال يميز المصري حتى اليوم ، كذلك كان غطاء الرأس يعتبر ، طوال اجيال ، العلامة الفارقة في اللباس ، عند الشرقيين .

ولقد اختار علاء الدين لرجال البلاط والجند اللون الابيض علامةً مميزة لقلانسهم الطويلة المخروطية الشكل التي كانت شائعة في ذلك الوقت والتي كانت منتشرة في نواح مختلفة من بلادالفرس حتى عهد قريب .أما السلطان نفسه ، واما البكوات في المناسبات الرسمية ، فكانوا يلفون قلانسهم بالعمامة ، التي لم يتسع نطاق استعمالها ، الا في ما بعد .

تنظيم الجيش

وفي ما يتصل بتنظيم الجيش تزعم بعض المصادر ان السلطان وأخاه اعتمدا قاضي العسكر في بيله جك ، قره خليل چاندَرْلي خيرالدين باشا مستشاراً فنياً ، في حين ان بعض المصادر الاخرى لا تشير الى ظهوره حتى عهد مراد [٧] . والواقع ان الاتراك اشتهروا منذ خروجهم من البوادي ، بانهم فرسان بارعون جريئون الى حد التهوّر ؛ بيد انهم كانوا لا يفقهون معنى للتنظيم الفني . ولئن اثبتوا تفوقهم على مرتزقة البيزنطيين المتفسخة ، في الميدان الطلق ، فقد كانت حرب الحصون والمراكز المنيعة تتطلب مقدرات عسكرية اخرى . والحق ان الحاجة كانت أمسّ ما تكون الى

---

(٧) انظر تيشنر وويتك Fr. Taeschner and P. Wittek, *Die Vezierfamilie der Gandarlyzade und ihre Denkmäler*, *Islam* 18, 60 - 115 .

انشاء جيش من المشاة . ولقد عمل السلطان ، بادىء الامر ، على تأليف ذلك الجيش من الاتراك انفسهم . فكانت الدولة تدفع الى اصحاب الاقطاعات العسكرية المنتخبين لفرق المشاة ، آقجه واحدة كل يوم ، طوال الحملة . وكانت هذه الفرق مقسمة الى وحدات تتألف من عشرة انفار ومئة نفر والف نفر . ولكن هذا التنظيم لم يصمد للتجارب . ذلك بانّ هذه الخدمة العسكرية التي لم يكن للاتراك عهد بها من قبل حملت الناس على المغالاة في مطالبهم ، فوطّن اورخان نفسه على حل هذه القوّة بعد وقت قصير .

والمشهور ان چاندرلي هو الذي اقترح على أورخان إحياء العرف الاسلامي القديم الذي يقضي بان يحتفظ بيت المال بخمس الغنائم ، وبذلك ضمن للدولة مورداً يمكنها من الانفاق على جيش نظامي تحتفظ به على قدم الاستعداد . ولقد حاول ان يستعيض عن فرقة المشاة الاتراك بفرقة يؤلفها من النصارى الذين كانوا يألفون هذا النوع من الخدمة العسكرية . وإذ كان من أهم المبادىء التي يقول بها الشرع الاسلامي أنّ للمسلمين وحدهم الحق في حمل السلاح ، فقد تعين على الدولة أن تُكره النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد ، على الدخول في الدين الاسلامي. وهكذا افتتحت الدولة هذه الحملة بان انتزعت الف غلام نصراني من بيوت آبائهم واكرهتهم على رفض معتقدهم ؛ بيد أن تطلع هؤلاء الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له . والواقع ان هذه « القوة الجديدة » (يني چري « يكي چري »

ومنها الانكشارية) التي ترقى على ما يُظنّ الى سنة ١٣٣٠ نُظمت تنظيماً شبه ديني على غرار جمعيات الفرسان النصرانية التي انشئت للنضال ضد اعداء الكنيسة . وقد سبق لآسية الصغرى ان كانت دائماً ارضاً خصبة جداً لمختلف الطرق الدينية المنصرفة الى حياة الزهد والتصوّف ، العاملة ايضاً في حقل الخدمة الاجتماعية ، وفي العناية ايضاً بامر الرحّالة [المسافرين] الاجانب على الخصوص . وقد التحق بهذه الفرق جماعات من الشعب غير « المريدين » من مثل « الاخوان » الذين سبق ذكرهم . وهكذا انضوى الانكشارية تحت لواء الطريقة البكتاشية ، وتزعم الاسطورة ان مؤسسها قد بارك هذا الجيش الجديد ، عند انشائه . كذلك نُعمت الخيّالة بتنظيم أشدّ إحكاماً ، في عهد أورخان . وإنما جعل في أساس هذا التنظيم جيشاً يتألف من الفرسان المختارين ذوي الرواتب النظامية ويدعى « بولوكات اربعة » (الفرق الاربع) – وكان ينتظم اول الامر ، ٢٤٠٠ من الرجال الاشداء ليس غير ، ثم انتهى بعد الى ان ينتظم ستة عشر الف رجل . ولقد كلف هؤلاء أمر حماية الراية الامبراطورية التي استعيض عنها منذ عهد السلطان سليم الاول بالراية النبوية . وبالأضافة الى هذه الفرق ظلت هناك كتائب الفرسان الاقطاعية ، او « المسلّمون » ، (المعفون من الضرائب) وكانت خاضعة لامرة بكوات السناجق .

بهذه الجيوش المنظمة تنظيماً جديداً استطاع اورخان ان يواصل حملاته ، في عنف متزايد ، على المدن الساحلية . فما هي الا فترة حتى حاولت الثغور البحرية الكبرى صيانة تجارتها من طريق

الدخول في طاعته . وعلى الرغم من الاخفاق الذريع الذي مني به هجومه الاول على بيزنطة نفسها ، سنة ١٣٣٧ — وكان يقصد الى الاقتصاص من الامبراطور قانتاقوزن لدخوله مع السلاجقة في حلف دفاعي ضده — فقد اوجس الامبراطور خيفة من جيوش اورخان المندفعة نحوه من الجوار القريب ، حتى لقد آثر التحالف معه ، موقتاً ، ليعود في سنة ١٣٤٥ فيزوجه ابنته ، ابتغاء توثيق صلاته به الى اقصى الحدود . ولكن هـذا الزواج لم يحل بين العثمانيين والاندفاع الى الامام ، فقد وفقوا ، بقيادة وليّ العهد الامير سليمان ، الى تثبيت اقدامهم في غاليبولي ، في شبه جزيرة تراقِيَه سنة ١٣٥٧ . وايّاً ما كان، فسرعان ما قضى سليمان نحبه، بعيد هذا النصر ، فدفن فيها .

فتوح مراد في البلقان

وتوفي اورخان سنة ١٣٦٢ فخلفه على العرش ابنه الثاني ، مراد، الذي اتجه اهتمامه ، في الحال ، نحو شبه جزيرة البلقان ، حيث كان عددٌ من صغار الحكام ، لا يكاد يحصى ، يتنازعون السلطان ، ويفني بعضهم بعضاً في حروب موصولة الحلقات . وكان عليه ، في الحق ، ان يقضي على جمهرة من الخصوم في آسية الصغرى قبل ان يندفع في ذلك الاتجاه . ففي انقرة التي سبق لاخيه سليمان ان ضمها لى ملك ابيه ، سنة ١٣٥٤ ، كانت الادارة لا تزال في المحلّ الأول ، في ايدي تجار كبار منخرطين في جماعات « الاخوان » وهو وضع طبيعي في ثغر من الثغور النائية آنـذاك . وحسب هؤلاء التجار ان في استطاعتهم ان يستغلوا موت اورخان وقيام

ابنه من بعده للتخلص من نير الحكم الاجنبي ، فتحالفوا مع جيرانهم سلاجقة قرمان. ولكن مراداً وفق الى القضاء على مناوئيه في حملة سريعة [8] قادته حتى تُوقات ، ومن ثم صار في ميسوره أن يفرغ للحرب البلقانية. فاتخذ دِيْمُتُوقه قاعدة لأركان حربه، وحمل على امراء البلقان فتساقطوا واحداً اثر واحد في قبضة العثمانيين الذين كانوا جادّين في سبيل تحقيق اهدافهم السياسية ذات الاثر البعيد. وفي سنة ١٣٦٢ فقد البيزنطيون أدْرَنَة ، فاتخذها الامراء العثمانيون عاصمة لهم من سنة ١٣٦٦ حتى سقوط القسطنطينية.

وحاول البابا اوربانوس الخامس ان يدعو النصارى الى صليبية تستنقذ ادرنة من ايدي المسلمين ، ولكن عبثاً. وعلى الرغم من ان جيشاً من فرسان النصارى ، يقوده اماديوس كونت ساڤوا ، استطاع ان يوطد اقدامه في غاليبولي فترة قصيرة من الزمان، فقد أخفق في التفاهم مع البيزنطيين على خطة مشتركة ، فاضطر الى الانسحاب في وقت قريب. وانتهى الاباطرة من اسرة بليلوجيوس الى ان يصبحوا شيئاً بعد شيء اكثر اعتماداً على الاتراك ، بل لقد تعين عليهم في ما بعد ان يقدموا الى هؤلاء مساعدة عسكرية عند فتح آلاشهر (فيلادلفيا) .

موقعة قوصوه

وكان لاختلاف صقالبة [سلاف] البلقان وتفرّق كلمتهم أثره في تغلب العثمانيين عليهم ، في سهولة ويسر . ففي سنة ١٣٧١، بينا

---

(٨) انظر ويتك P. Wittek , in *Festschrift Jacob* , 354.

كان مراد في آسية ، حاول الصرب * ان يقصوا عن اعناقهم نير الاستعباد الذي كان يتهددهم ، فشنوا هجوماً [على العثمانيين] بقيادة « ووقاچين » . ولكن حاجّي إيلبكي هزمهم هزيمة شنعاء عند شرْمَن (چِرمن) على ضفاف نهر مَريچ فأنتهوا الى ان يفقدوا ممتلكاتهم في مقدونية . ثم ان العثمانيين احتلوا بعد ذلك صوفيا ونيش ، سنة ١٣٨٥ – ١٣٨٦ . وأتم خير الدين باشا فتح مقدونية من غاليبولي (حيث شيد سنة ١٣٨٥ الجامع الكبير : اسكي جامع) يساعده في ذلك قائد الجيش اورنوس بك الذي التحق ، بعد سقوط أسرة قره سي التي ينتمي اليها ، بخدمة سليمان . ومن كومُلْجِنه التي فتحها اورنوس ، استولى العثمانيون على سَرِي ، وكانت محل نزاع بين الصرب والبيزنطيين ، ومن هناك فتحوا سالونيك ، واعملوا السلب والنهب في شمالي بلاد اليونان حتى أقرْنانْيا . وكان قيصر بلغارية ، شِشمان الثالث ، قد اقتسم هو واخوه سَراسِمير المقيم في وِدين (سنة ١٣٦٤) امبراطورية أبيهما الاسكندر وصاهر مراداً . ولكن تقدم مراد في البلقان لم يلبث ان اثار مخاوفه فعقد حلفاً مع الصرب والبشناق . وفي سنة ١٣٨٧ تصدى القائد التركي لالاشاهين للجيوش المتحالفة ، عند بلوشنك ، فأوقعت به هزيمة ساحقة ، وقضت على جيشه قضاء يكاد يكون تاماً . والواقع ان هذا النصر ما كان ليتم لولا انهماك مراد ، مرة اخرى ، في شؤون آسية . وكان ساوْجي ، وهو ابنه الاكبر ونائبه في حكم اوروبة ، قد خرج على طاعته وعقد حلفاً مع احد الامراء البيزنطيين واميرٍ

* وفي بعض المصادر اعتمدت بالسين . [المعربان]

قرمان السلجوقي . ولكن الحلفاء هُزموا في قونية ، سنة ١٣٨٦ .
وفي سنة ١٣٨٨ وفق علي باشا ، ابن قره خليل چاندرلي ، الى ان
يثأر لهزيمة العثمانيين في البلقان . فعبر وثلاثين الفاً من رجاله مجاز
« نادر » واحتل مدينتي تِرْنُوَه وُشملا . وُطوّق القيصر ششمان
في نيقوبوليس على نهر الطونـــه (الدانوب) ، ولكن الاتراك
صالحوه على ان يدفع اليهم الجزية ويتنازل لهم عن سِلِسْتْرَه .
حتى اذا خرق هذا الاتفاق حاصروه كرّة اخرى عند نيقوبوليس
واكرهوه هذه المرة على التسليم دون قيد او شرط ، ولكنهم
ابقوا على حياته وحفظوا له عرشه . وفي السنة التالية تمّ تحالف
آخر كبير ضد العثمانيين . وهكذا التقى العثمانيون في ١٥ حزيران
سنة ١٣٨٩ بالقوات الصربية – تساندها جيوش اضافية من البشناق
والمجر والبلغار والالبانيين [الأرناوط] – في ميدان الطيور
السود (قُوصُوَه) حيث تنبع الانهار الثلاثة : إيبار وڤارادار *
ودَرِينَه ، وكان يقود العثمانيين هذه المرة مراد نفسه ، بعد ان جمع
ابناه بايزيد ويعقوب واتباعه [امراء] صاروخان ومَنْتَشَا وآيدين
وحَمِيْد الجيوش الاسيوية . وكانت المعركة عنيفـــة تنازع فيها
الفريقان راية النصر ، غير مرة ، وابدى النصـــارى من شديد
المقاومة ما كلف العثمانيين خسائر فادحة ، وُقتـــل مراد نفسه في
هذه المعركة . وتذهب الروايات التركية الى ان ميلوش كوبِلِتش ،
وهو مقاتلٌ صربيٌّ أصيب بجراح فانطرح في الميدان ، انما قتله غيلة
وغدراً . واما الملاحم الصربية فتزعم أنه صُرع في خبائه بخناجر

* « واردار » في التركية المكتوبة بالاحرف العربية . [المعربان]

اثني عشر بطلاً اخذوا على انفسهم عهداً بقتله . بيد ان العثمانيين ما لبثوا ان اسروا ملك الصرب ، لازار ، بعد ان انفضّ من حوله حلفاؤه ، وقطعوا رأسه ورؤوس رفاقه عند اسرهم وفقاً لأوامر السلطان المحتضر ، على ما يُزعم . وهنا لمّ وليّ العهد ، بايزيد ، وكان يقود الجناح الايسر ، شمل قواته المتضعضعة وقادها الى النصر النهائي على القوات الصربية التي فتّ في ساعدها هلاك مليكها [٩] .

وانصرف بايزيد بكليته – وباكثر مما فعل اسلافه انفسهم – الى الاهتمام بالشؤون العسكرية ، هذه الشؤون التي لم يعد يعالجها بوصفه زعيماً لجماعة من الغزاة المجاهدين ، بل كرئيس لدولة عظمى . وما هي الا فترة قصيرة حتى استشعر جيرانه مبلغ قوته وسلطانه . ففي سنة ١٣٩٠ فقد البيزنطيون آخر ممتلكاتهم في آسية الصغرى ، مدينة آلاشهْر ، ليضطرّ الامبراطور الشاب مانويل ، بعد ذلك الى ان يُمِدّ السلطان على اتباعه [اتباع مانويل] المخلصين . وبعد ثلاث سنوات أخضع البلغار اخضاعاً تاماً . ولقد رأس البطريرك يوثيميوس حركة المقاومة الاخيرة ، في العاصمة تِرنوَه ، بعد سقوط أميرهم ششمان .

صليبية جديدة

وكان طبيعياً ان تثير هذه الانتصارات العثمانية جزع الغرب ،

---

(٩) راجع برون M. Braun, *Kosovo, Die Schlacht auf dem Amselfelde in geschichtlicher und epischer Uberlieferung* (*Slav . balt. Quellen und Forschungen*, published by R. Trautmann, VIII) Leipzig, 1937 .

فاذا بالبابا بونيفاسيوس التاسع يدعو الى الحرب ضد المسلمين في فرنسة ، والبلدان المجاورة لجبال الألب ، وجنوبي المانية . واذا بالفكرة الصليبية التي نسيها الناس في الظاهر منذ أمد طويل تعود الى الظهور ، فلا يطل ربيع سنة ١٣٩٦ حتى يكون سيجسموند ملك المجر قد استطاع ان يجمع حوله ، في بُودا ، جيشاً قوياً من الفرسان تقاطروا اليه من بلدان اوروبة الغربية . ولكن فقدان روح النظام عند هؤلاء المحاربين في سبيل الايمان جعل حماستهم عديمة الجدوى بالكلية . وذهبت جميع جهود سيجسموند لقيادتهم في حرب منظمة ادراج الرياح . وهكذا وفق بايزيد ، في ٢٧ ايلول ، الى ان ينزل بهم ، عند نيقوبوليس ، هزيمة قاسية . وتوغلت الجيوش العثمانية اللاحقة بفلولهم حتى ستيريا . ثم ان بايزيد اقتص من حكام شبه جزيرة المورة اللاتين الذين حالفوا الصليبيين فدمر اراضيهم . وفي سنة ١٣٩٤ ارسل بايزيد ، وهو في أوج انتصاراته ، بعثة الى الخليفة المتوكل المقيم في القاهرة طالباً منه ان يخلع عليه لقب سلطان الروم لكي يسبغ على السلطة التي تمتع بها [هو] واجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيبة لدى العالم الاسلامي . ولم يكن في ميسور السلطان برقوق ، حامي الخليفة ، ان يأبى عليه اجابة بايزيد الى طلبه ، اذ كان يرى في العاهل العثماني حليفه الاوحد ضد المغول الذين كانوا يهددون كلاً من بايزيد وبرقوق بخطر عظيم .

الخطر المغولي

والحق أن المملكة العثمانية كانت ، منذ فترة من الزمان ،

تستشعر هذا الخطر المغولي يتهددهـا من الشرق ، ويمنح الروم البيزنطيين ، في الوقت نفسه ، فرصة جديدة يتنفسون خلالهـا الصعداء . فقد ظهر في المغول الذين أنزلوا بالعالم الاسلامي ، للمرة الثانية ، ضروب الفظائع الوحشية على اختلافها ، بطلٌ عسكريٌ آخر يدعى تِيمُور . [تيمورلنك] . وانما ولد هذا القائد العظيم سنة ١٣٣٦ ، في كشْ من أعمال مـا وراء النهر ، متحدراً من سلالة جِنْكيز خان . وحوالى سنة ١٣٦٩ خلـع تيمور امير خراسان ومـا وراء النهر (وهو ينتسب الى جِغَتاي ثاني ابناء جنكيز) الذي كان مجرّد رئيس اسمي لحكومة يسيطر عليهـا الأشراف من الجنود الاتراك . وحوّل تيمور ممتلكات جغتاي هذا الى امبراطورية جعل عاصمتها سمرقند . وكانت الاحوال البدوية أغلب عـلى هذه المدينة ، في عهد اسلافه ، فرفعها الى مستوى الحاضرة المستقرة ، وعهد الى الصنّاع الفرس في تجميلها بالابنية الفخمة . وعطف تيمور ، بوصفه مسلماً صالحاً ، على العلماء ورجال الدين ، وبخاصة دراويش الطريقة النَقْشْبَنْدِية . ومهما يكن من شيء ، فلم يقنع تيمور بهذه الامبراطورية التي تمّ له إنشاؤها ، بل سعى الى ان يستعيد كامل التراث الذي خلفه سلفه جنكيز خان ، فكان يضرم نيران الحروب ، سنوياً ، في طول البلاد وعرضها ، من موسكو الى نهر الكنج وحتى سورية غرباً . وادرك بايزيد بثاقب نظره ، أن لا مفرّ له من منازلة هذا الفاتح يوماً مـا . من اجل ذلك اتجهت همته ، منذ سني حكمه الاولى ، الى تقوية مركزه في آسية . ففي سنة ١٣٩١ انتزع قونية مـن صهره أمير قرمان ،

وكان مراد ، ابو بايزيد ، قد أبقى عليه . فلما كانت السنة التالية ، وخسر هذا الأمير معركة خاضها ضد قائده تيمور تاش ، استولى بايزيد على سائر ممتلكاته . ثم إن التركمان في قيسارية ، وتُوقات ، وسيواس دخلوا في طاعته ؛ وفي سنة ١٣٩٣ فقد أمير قسطموني ممتلكاته ايضاً . وفرّ الأمراء الذين استولى العثمانيون على ديارهم الى حمى تيمور ، ليتابعوا من هناك النضال ضد بايزيد . حتى اذا تعرض بايزيد لصاحب أرزنجان الأرمني ، ايضاً ، ظهر تيمور في آسية الصغرى سنة ١٤٠٠ – وكان يعتبر صاحب ارزنجان تابعاً له – واحتلّ سيواس وأعمل السيف في حاميتها ، فقضى على افرادها جميعاً ، وفيهم ارطغرل ، أكبر أبناء بايزيد .

واكتفى تيمور ، باديء الرأي ، بهذه الحملة التأديبية ضد بايزيد ، ليولّي وجهه نحو مصر في حملة تخريبية مظفرة ضدّ صاحبها ، السلطان فرج المملوكي . ولعله ذكر ما سبق لمماليك مصر ان ابدوه من مقاومة لهولاكو ، فأراد ان لا يعرض جناح جيشه للخطر . ثم انه قضى الشتاء التالي (١٤٠١ – ١٤٠٢) في قَره باغ في ماوراء القوقاز [القبق] ، بين نهري كُور وآراس ، وهناك اعد العدة لمعركة فاصلة يخوضها ضد العثمانيين .

بين بايزيد وتيمور

حتى اذا اطل ربيع سنة ١٤٠٢ بدأ تيمور هجومه متقدماً نحو سهل انقره من طريق ارزنجان وتوقات وسيواس . وهنا ، ارتضى بايزيد خوض المعركة ، عند چِبُق آباد (چبوق آباد) اواخر شهر تموز ، على الرغم من ان مستشاريه ألحوا عليه بخلاف ذلك ، بسبب

من حال الجيش وعدم استعداده ، وتفوق العدو تفوقاً عددياً هائلاً . والواقع ان العثمانيين كان يعوزهم ، في حربهم هذه ضد اخوانهم في الاسلام ، تلك الحماسة الدينية التي ألهبت نفوسهم في الحروب الاخرى . ومهما يكن من امر ، فلم تدخل الجيوش النصرانية الاضافية المعركة ، تحت لواء بايزيد ، الا على كره . وعلى الرغم من هذا ، فقد بدأت المعركة ، صباح العشرين من تموز سنة ١٤٠٢ ، في صالح الاتراك . فهاجم الفرسان الصرب الدارعون جند المغول ذوي السلاح الخفيف ، وشدوا عليهم في حماسة بالغة ، ولكن بايزيد طلب اليهم ان يرتدّوا ، خشية ان يطوقهم العدو . وتابع المغول تقدمهم ، حتى اذا بلغوا الخطوط العثمانية نزعت العساكر السلجوقية الى القاء السلاح والفرار بعد ان رأوا امراءهم السابقين يقاتلون في صفوف الاعداء . وثبت بايزيد وحوالى خمسة آلاف من الانكشارية في وجه تيمور وجنوده ثباتاً باسلاً حتى المساء ، وعندها لم يعد في طوق المقاومة ان تدفع الهزيمة اكثر مما فعلت . فلما هبط الليل لاذ السلطان بالفرار ولكنه أُسر هو وابنه موسى ، في حين فزع ابناه الآخران ، محمد وعيسى ، الى قرمان . واحسن تيمور ، بادىء الامر ، معاملة الاسير ، حتى اذا قام بمحاولة مخفقة الى الهرب ، شدد عليه الاسر وحمله معه في قفص من حديد . وتوفي بايزيد في آق شهر من اعمال حَميد ، في ٨ آذار سنة ١٤٠٣ ، فاكرمه تيمور بان سمح بدفنه في جامع بروسه .

وأعاد تيمور امراء السلاجقة السابقين الى اماراتهم ، في آسية

الصغرى ، وفتح ازمير التي كان البيزنطيون قد انتزعوها من أُومُور بك صاحب آيدين . ولكنه ابقى الروم إيلي * للعثمانيين فآلت الى سليمان بن بايزيد ، الذي اضطر الى ان يعترف بسلطة تيمور ، وان يحكم البلاد كتابع له .

ثم ان تيمور يمّم وجهه قبل المشرق ، من جديد ، قاصداً مقرّه في سمرقند . وفي ١٩ كانون الثاني سنة ١٤٠٥ ، توفي في أُطرار (اتوار) بينا كان يشن حملةً على بلاد الصين ، فتركت آسية الصغرى لتدبر امرها بنفسها .

خلفاء تيمور

وقسم ابنا تيمور ، شاه رُخْ و مِيران شاه امبراطوريته شطرين شرقياً وغربياً ، يفصل ما بينهما خط ممتد على محاذاة نجد ايران . واضطر ميران شاه ، وقد آل اليه امر العراق وآذَرْبَيجان واجزاء من بلاد القبق [القوقاز] الى ان يخضع لسلطان أخيه ، ليقتل ، سنة ١٤٠٨ ، في معركة خاضها ضد زعيم جماعة من التركمان تدعو نفسها قَرَهْ قيُونْلي (الخروف الاسود) . وتنازع هؤلاء وخصومهم آق قيونلي (الخروف الابيض) على امتلاك الولايات الشمالية الغربية التابعة لشاه رخْ الذي وحّد الامبراطورية تحت لوائه ، بعد وفاة اخيه . وكان شاه رخ واعقابه — وبخاصة « أُلُغ بك » الذي كان معنياً بعلم الفلك (١٤٤٧ — ١٤٥٢) — يشملون الشعر والعلوم برعايتهم ، فأدوا بذلك خدمة جليلة الى الادب الفارسي ، والادب التركي الشرقي . ووفق ابو سعيد ، خليفة أُلغ

* المشهورة بالروملي [المعربان]

بك (١٤٥٢ - ١٤٦٩) ، الى ان يعيد تثبيت سلطانه من العراق الى حدود الهند ، ولكنه قضى نحبه في موقعة جرت بينه وبين أوزون حسن الذي سيأتي ذكره في ما بعد .

واتخذ حسين بايقرا مدينة هراة عاصمة له من سنة ١٤٦٩ الى سنة ١٥٠٦ ، فازدهرت شأن سمرقند من قبل وامست مركزاً زاهياً من مراكز الثقافة والفن الاسلاميين . ومهما يكن من امر ، فقد اشتد ضغط قبيلة الاوزبك التركمانية ، بقيادة زعيمها شيباني [خان] على الاجزاء الشرقية من امبراطورية تيمور . وفي سنة ١٥٠٠ خلع شيباني هذا [السلطان] بابر ، حفيد ابي سعيد ، عن عرشه في سمرقند ، واكرهه على الهجرة الى الهند ، حيث اسس امبراطورية المغول العظام . اما في الغرب فقد انتهى خلفاء تيمور الى وضع بالغ العسر بعد ان وفق الشاه اسماعيل الى اعادة توحيد ايران على انقاض دولة اردبيل الشيعية الدينية كما سنرى بعد .

النزاع بين ابناء بايزيد

ونشب النزاع بين ابناء بايزيد عقب وفاته مباشرة . وكان محمد ، وهو اشدهم بأساً واكثرهم نشاطاً ، قد فر من انقرة ، في اتجاه الشرق واعتصم بالجبال المحيطة بأماسيه وتوقات . ومن هناك هاجم أخاه الاكبر ، عيسى ، الذي احتل ، قبل ذلك ، مدينة بروسه ، ورفض ما اقترحه محمد من قسمة الممتلكات الاسيوية بينهما (سنة ١٤٠٣) ؛ وهزم محمدٌ أخاه عند أولوباد ، ثم اندفع نحو بروسه ، في حين لاذ عيسى بالفرار الى بيزنطة . ثم إن أخاه سليمان الذي لم يقنع بالروم ايلي وحدها ، ما لبث ان امده بجند جديد ، فتوجه

كرّة اخرى صوب آسية الصغرى ، ولكنه مُني فيها بهزيمة جديدة ولقي حتفه في قرمان . وفي اواخر سنة ١٤٠٤ عبر سليمان نفسه الدردنيل ، واخرج محمداً من بروسه ، حتى اذا كانت السنة التالية اخرجه من انقرة ايضاً . عندئذ هاجم موسى ، وهو رابع ابناء بايزيد ، بلاد الروم ايلي ، يؤيده الصرب ، بايعاز من محمد ، وكان موسى هذا قد أسر في انقرة ، ثم اطلقه امير كَرْمِيان السلجوقي . ومهما يكن من شيء فقد هزم سليمان اخاه موسى ، في القرن الذهبي ، قرب القسطنطينية ، وطارده في الدردنيل .

غير ان حياة سليمان الصاخبة وسلوكه المستهتر حوّل عنه ولاء بطانته . فلم يكد موسى يعاود الهجوم على قواته ، بعد ثلاث سنوات ، حتى خانه اصحابه ، قبل ان تبدأ المعركة . وفي تموز سنة ١٤١٠ قتله بعض الفلاحين فيما كان يلوذ بالفرار .

ولكن موسى ابى ان يعترف لمحمد بالسيادة . ولقد استهل عهده بحملة انتقامية شنها على الصرب الذين خانوه قبل ثلاث سنوات وكانت خيانتهم ، في زعمه ، سبب هزيمته ، ففتح تساليه حتى اذا ثقلت وطأته على الامبراطور مانويل تحالف الامبراطور ومحمداً ضدّه . وقد تمّ هذا التحالف على يد سفير موسى نفسه ، وكان قد عُهد اليه في جمع الجزية ببيزنطة ، فخلع طاعة مولاه والتحق بخدمة محمد . وانتهى اول هجوم قام به الحليفان ، سنة ١٤١٠ ، الى الاخفاق ، عند « ياجيغيز » . ومن ذلك الحين انهمك محمد ، طوال سنتين ، بمحاربة أميري ازمير وانقرة في آسية الصغرى . ولم يفرغ لاستئناف الهجوم في اوروبة الا سنة ١٤١٢ . وبينما كانت جيوش

موسى تعسكر على ابواب القسطنطينية ، اندفع [محمد] في اتجاه الشمال حتى نِيش ، ليتعاون مع الصرب الذين اعلنوا الحرب على موسى . فلما كان الصيف التالي تقدم وحلفاءه من الصرب جنوبا. فلم يكن من موسى الا ان سار في ١٠ تموز سنة ١٤١٣ لملاقاتهم على سهل « چامورلى » الضيق ، عند منبسط نهر « إسكار » شرقي صوفيا ، ولكنه هُزم بعد مقاومة باسلة ، وأسر فيما هو يلوذ بالفرار ، ليُقتل خنقاً في معسكر أخيه . وكافأ محمد الصرب واليونان على مساعدتهم ، فمنحهم بعض الامتيازات الاقليمية .

وأقرّ معظم الامراء الصغار في اوروبة وآسية بسيادة محمد عليهم بعد مقاومة قصيرة . حتى اذا حاول ان يُكره البنادقة النازلين في جزر بحر إيجه على الدخول في طاعته ، تصدت له مدينة البندقية نفسها ، ليضطرّ باديء الامر الى التخلي عن مطالبه ، بعد ان مُني اسطوله بهزيمة قاسية عند غاليبولي ، في ٢٩ نوار ١٤١٦ .

ثورة بدر الدين الصماونوي وبوركلوجه مصطفى

ولكن مدى الهزة التي تعرضت لها آساس الامبراطورية بسبب من ظهور المغول وما تلاه من الحروب الاهلية إنما يتمثل في حركة مذهبية بارزة اتجهت الى مناصبة الاسلام نفسه العداء . وتفصيل ذلك ان بدر الدين محمود الصِماوْنوِي ، قاضي العسكر السابق ، وكبير وزراء موسى ، وأحد اقرباء امير قونية السلجوقي ، كان قد نزل في نيقيه (إزنيق) بعد هزيمة مولاه . وهناك انصرف هذا الفقيه الجليل – الذي سبق ان اظهر تمكنه من الشرع الاسلامي في كتاب اصطُنع للتدريس برهة طويلة – الى

صوفية متعصبة ترجع في الاصل ، من غير شك ، الى عقيدة المهدي الواسعة الانتشار عند الشيعة ، ولكنها أبعدته آخر الامر من الاسلام ، وجعلته غريباً عنه بالكلية . والواقع ان تعاليمه الجديدة التي قالت بالملكية المشتركة وبأن النصارى يستوون والمسلمين في الايمان بالله وعبادته قد حظيت بقبول حسن عند فلاحي آسية الصغرى الذين كانوا يعانون ، في الجملة ، إرهاقاً شديداً من سادتهم الاقطاعيين ، والذين عاشت الافكار النصرانية في ديارهم ، على اختلافها ، بعد ان اختلطت ببعض الافكار الوثنية التي عرفتها آسية الصغرى في عهودها القديمة . ثم ان مريده وحاجبه السابق ، بُورْكْلُوجه مصطفى ، جمع اتباعه حوله في جبل « ستيلاريوس » ، عند الطرف الجنوبي من خليج إزمير ، تجاه جزيرة خيوس (ساقز). وسرعان ما أخذ اتباعه في الاغارة على البلاد المجاورة حتى اقليم مغنيسيه ، وعلى رأسهم جماعة من الصوفية (الدراويش) المتعصبين. وكان شِشْمان الصربي ، الذي اعتنق الاسلام ، حاكماً على آيدين ، فلما جاءه الامر بضرورة القضاء على الحركة الخطرة خرج لقتالهم بحماسة متهورة ، في مخارم جبل « ستيلاريوس » حيث اوقع به الثائرون وقضوا عليه وعلى جنوده جميعاً . ولم تتحسن الامور شيئاً ما في عهد خلفه علي بك الذي استطاع ، على كل حال ، أن ينجو بنفسه . وهكذا اضطرّ مراد بن محمد — وهو صبي لم يكد يبلغ الثانية عشرة من سنيه ، وكان يقيم في أماسيه والياً عليها — الى أن يضمّ قوّاته الى قوات امير الروم ايلي ، بايزيد باشا ، وينقض على العصاة ، فيذوقوا آخر الأمر طعم الهزيمة عند جبل

قَـرَه بُرُون . ومات مصطفى على الصليب شهيد معتقده، اما استاذه بدر الدين فكان قد فر قبل ذلك الى الأفلاق حيث جمع فلول اتباعه واحتل ممراً جبلياً في البلقان . حتى اذا تقدم محمد بنفسه لمقاتلته ، انضمت قوات بدر الدين الى جانبه بعد ان جاءها نبأ النهاية التي قُدرت لمصطفى . وهام بدر الدين على وجهه فترةً من زمان ، ولكنّ البقية الباقية من اتباعه ما لبثت ان أسلمته ، آخر الامر ، الى السلطان ، ليموت شنقاً في سَرِي ، سنة ١٤١٦ بتهمة الخيانة العظمى .

مراد الثاني والحرب ضد المجر

وفي سنة ١٤٢١ توفي محمد في أدرنة ، فخلفه مراد الثاني . ولقد تعين على مراد ان يحمي عرشه ، باديء الرأي، من مُدّع تحالف مع الامبراطور مانويل البيزنطي ، وزعم انه مصطفى بن بايزيد (الذي قُتل في أنقرة) ، لينصرف [مراد] بعد ذلك الى الدفاع عن سلطانه في آسية ، ضدّ أخيه مصطفى نفسه ، ولم يكن يتجاوز الثالثة عشرة . وحاول مراد ، بعد اخضاعه الثوار ، أن يقتص من الأمبراطور مانويل باحتلال سالونيك ، فلم يكن من البنادقة الا ان اعترضوا سبيله ، واشتروا المدينة من الامبراطور. واقرّ مراد ، اول الأمر ، بملكيتهم للمدينة لقاء جزية يدفعونها اليه، هادفاً بذلك الى كسب الوقت وإعداد العدة لصراع قريب . وفي سنة ١٤٣٠ عاود السلطانُ الهجوم ، حتى اذا كان يوم ٢٩ آذار ، احتل العثمانيون سالونيك عنوة ، ودمروهـــا تدميراً مهولاً . ولم يعاود الازدهارُ هذه المدينة إلا تدريجياً ، على الرغم من استقرار

المسلمين فيها بعد ، وتمتّعها بمرفأ ممتاز ضمن لها تجارة ً واسعة في مختلف العهود .

ثم ان مُراداً حاول ان يبسط سلطانه ، شمالاً ، على البلقان ، فتصدّت له القوات المجرية . والواقع أن الهزائم التي انزلها يوحنا هُونيادي الترانسلفاني بالجيوش العثمانية هناك بعثت من جديد فكرة الحرب الصليبية العامة تشنّها النصرانية على أعدائها . ورحب النصارى باعلان البابا اوجانيوس الرابع لهذه الحرب ترحيباً حماسياً في المجر وبولندة ، وهما أقربُ الى الخطر من بلدان اوروبة الاخرى ، وفي المانية وفرنسة أيضاً . وفي تموز سنة ١٤٤٣ غادر الجيش الصليبي مدينة بودا ، ليُحرز في ٢٤ كانون الاول نصراً مؤزّراً عند جالوواز ، بين صوفيا وفيليبوبوليس . ولكن الشتاء لم يُساعد المنتصرين على الافادة من نصرهم ، واستغلاله . حتى اذا رفع جورج كَسْتَرْيُوتا (اسكندو بك) ، الذي نُشيء رهينة في البلاط العثماني ، راية الثورة ضد العثمانيين في ألبانيا ، وكان التوفيق حليفه ، اضطر مراد الى طلب الصلح . وفي سنة ١٤٤٤ عُقد مجمع في سِكَنْدِين اجابه الى ما طلب ، لمدة عشر سنوات .

ولكن البابا ادرك ان هذا الاتفاق قد عطل خططهُ بالكلية ، فحض المجريين على نقض الصلح ، على اعتبار ان العهود التي تعطى لغير المؤمنين لا تُلزم اصحابها . فلم يكن من المجريين الا ان غزوا البلدان البلقانية في ايلول من السنة نفسها — بحجة ان العثمانيين لم يُخلوا عدداً من القلاع الصربية ، وفقاً لنصوص المعاهدة — وتقدموا على شواطيء البحر الأسود ، واتصلوا بأسطول البندقية في غاليبولي .

ولكن مراداً تقدم لقتال النصارى في ٩ تشرين الثاني، تحت أسوار وارْنَهْ (ڤارنا)، حيث انتصر عليهم انتصاراً عظيماً بفضل حمق الملك ڤلاديسلاف الذي لم يكن يتجاوز العشرين، والذي تأكّل نفسه الحسدُ لانتصارات هونيادي في بدء المعركة، فبرح المكان المعين له وُصرع في هجوم شنه على الانكشارية.

وحكم هونيادي بلاد المجر، بعد مصرع الملك ڤلاديسلاف، باسم ابنه القاصر؛ ولكنه لم يحاول أن يغسل عار وارنه الا بعد اربع سنوات. ففي اواخر ايلول سنة ١٤٤٨ سار الى بلاد الصرب، فالتقاه مراد في سهل ُقوْصُوَه، في ١٧ تشرين الاول. ولم يمض يومان حتى انحاز اهل الأفلاق، بعد معارك حامية، الى العثمانيين. ثم ان هونيادي حاول ان يشق طريقه عبر الدانوب، فوقع في ايدي اعدائه الصرب، واضطر الى ان يعقد صلحاً لم تكن شروطه في مصلحته البتة.

الحياة الفكرية والفنية في عهد مراد

والحق ان عهد مراد يمثل من نواح متعددة نهاية الثقافة العثمانية القديمة. ففيه كانت طبقة النبلاء القديمة لا تزال قادرة على الاحتفاظ بنفوذها الذي سلبتها اياه، بعد، جماعة الداخلين حديثاً في الاسلام. وواصلت الحياة الدينية في هذا العهد دورانها في فلك الصوفية التي قررت الاتجاه الادبي ايضاً. فقد كانت قصائد الشاعر التركي الشرقي المتصوّف، احمد يَسَوِي، معروفة في الاناضول منذ القرن الثالث عشر بواسطة الطرق الصوفية التي نشرت تعاليمه. وانما قلده في فنه المفرغ في لغة شعبية وفي وزن تركي أصيل الشاعر

يونس أَمْرَه الذي عاش في الاناضول في اوائل القرن الرابع عشر. ليس هذا فقط . بل لقد ازدهر في قصور الامراء السلاجقة شعرٌ دنيوي يصطنع الطرائق الفارسية في النظم . فلما تجزأت الامبراطورية السلجوقية الى إمارات صغيرة تقاسمت تراثها ، وانحط مستوى الثقافة العام ، اخذت اللغة التركية تحل محل لغتي الادب العالي ، العربية والفارسية ، ونشأ نثر ديني شعبي ، استهدف تفسير القرآن وتنمية [الحياة] الروحية . وفي بلاط مراد الذي شمل برعايته العلماء والشعراء والموسيقيين ، ظهرت اولى المؤلفات المسهبة في اللغة التركية ، وكانت الترجمة أساساً لأقدمها من غير شك .

محمد الثاني : فتح القسطنطينية

وفي ٥ شباط سنة ١٤٥١ توفي مراد فخلفه ابنه محمد . ولقد استهل السلطان الجديد حكمه بأن امر بأخيه احمد فقتل ، ومن ذلك الحين انتهت عادة قتل السلطان اخوته الى ان تكون قاعدة شبه مطردة ، كلما ارتقى عاهل عرش السلطنة ، وذلك بسبب من التجارب المفجعة التي عانتها الاجيال السابقة .

وتجدر الاشارة الى ان محمداً قد اعتبر خطأ عديم المقدرة والمواهب بسبب من ان اباه نحاه عن القيادة عندما اشتد الخطر في معركة وارنه ليتولاها هو بنفسه . وفي الحال ، حاول امير كرمان ، شأنه كلما رقي العرش سلطان جديد تقريباً ، ان يخلع طاعة العثمانيين . وبينما كان محمد منهمكاً في اخضاع الثوار في آسية الصغرى تهدده الامبراطور قسطنطين التاسع بأنه اذا لم يضاعف

مبلغ الجزية السنوية التي كان [والده] يدفعها الى البيزنطيين لقاء احتفاظهم بالامير اورخان ، حفيد سليمان ، فسيعمد الى تحريض هذا الامير وتأييده في المطالبة بالعرش . ولقد كان هذا التهديد في الحق ، عملاً خاطئاً قرّر مصيره . فلم يكد محمد يرجع الى اوروبة اواخر سنة ١٤٥١ ، عقب حملته على كرمان ، حتى شيد قلعة « روم ايلي حصار » المنيعة ، على بعد لا يتجاوز سبعة كيلومترات من ابواب القسطنطينية ، عند اضيق نقطة من البوسفور ، الذي كانت تسيطر عليه ، من الجانب الاسيوي قلعة * خارجية اقامها بايزيد . عندئذ بعث الامبراطور بسفرائه للاحتجاج على هذا العمل ، فأمر محمد بهم فقطعت رؤوسهم . فكان ذلك ايذاناً منه بأعلان الحرب على الامبراطور .

ولم تتلق بيزنطة المهددة ايما عون الا من المستعمرة الجنوية في خيوس (ساقز) . اما البابا فقد اشترط لقاء تأييده لبيزنطة اتحاد الكنيستين ، غير ان تعصب الشعب قضى على هذا المشروع وجعل تحقيقه مستحيلاً — على الرغم من ان الامبراطور كان مستعداً للقيام حتى بهذه التضحية .

وكانت قوات الامبراطور المحاربة من القلة بحيث لم تكد تكفي لحماية الاسوار البيزنطية ويبلغ طولها مسيرة خمس ساعات او يزيد ، ولكن حصون المدينة استطاعت ان تثبت نحواً من شهرين فى وجه المشاة العثمانيين ، وكان ينقصهم فى ذلك الحين المران والخبرة . ولم يستطع العثمانيون ان يشقوا طريقهم الى المدينة الا

* « آ ناضولي حصار » واسمها الاصلي « كوزلجه حصار ». [المعربان]

بهجوم مباشر شنوه في ٢٩ نوار سنة ١٤٥٣ . وُصرع الامبراطور في القتال الذي دار في الشوارع . حتى اذا انتصف النهار دخل محمدٌ بنفسه المدينة ، واصدر امره الى جيوشه بوقف المجزرة ، ثم دخل كنيسة آيا صوفيا واستولى عليها رسمياً باسم الاسلام . ومنح محمد جَنَوِيي غَلَطَه الذين التزموا الحياد اثناء الحصار شروطاً للصلح ملائمة ، ضمنت لهم حرية العيش والتملك ، لقاء تسليمهم اسلحتهم جميعاً ، كما ضمنت لهم حرية التجارة ، مقابـــل ادائهم الضرائب القانونية والمكوس كافة .

وكانت دول الغرب النصرانية قد عزمت ، بعد فوات الاوان ، على ان توجّه اسطولاً لنصرة بيزنطة . ولم يكد هـذا الاسطول يصل الى ثغر "نغر "بونت حتى تسامع رجاله بخبر سقوط القسطنطينية .

ورجع محمد الى ادرنة سنة ١٤٥٣ بعد ان أمر ببناء حصون القسطنطينية المخربة من جديد ، ليجعل من هذه المدينة بعدُ ، وهي نقطة الدائرة الطبيعيـة في امبراطوريته ، عاصمة له ومقراً . وأياً ما كان فقد عمل محمد على تنظيم احوال اليونان [الروم] المغلوبين ، للتو والساعة . والواقع انه ابقى على استقلال البلغار الكنسي ، فعل اسلافه من قبله ، واعترف — وفقاً للفكرة الاسلامية المعززة بالتقاليد الدينية — بجميع السلطات الدينيـــة اليونانية . بل انه زادها قوة الى قوة بأن وكل اليها أمر القضاء المدني وتطبيق احكامه على اتباعها .

وكان من همّ محمد ، قبل كل شيء ، ان يعمل على زيادة عدد السكان في العاصمة بعد ان تقلص وتناقص . ولم يكد يعين ، في

البطريركية ، ممثلاً حازماً للكنيسة الوطنية حتى رجع الى ارض الوطن ، بناء على دعوته ، عددٌ غفير من الروم الذين نزحوا عن ديارهم قبل الكارثة . ولقد استقر بهم المقام حول البطريركية ، على الضفة الغربية من القرن الذهبي . وكان لهم من ثروتهم القائمة على التجارة ، ومن براعتهم التي جعلت الباب العالي ، بعد ، يعتمدهم في اتصاله بالدول الغربية ، ما ضمن لهم مركزاً رفيعاً في مختلف العهود . ليس هذا فحسب ، بل لقد اكره محمدٌ جماعات تمثل مختلف شعوب امبراطوريته على السكنى في العاصمة ايضاً ، حاشداً فيها ، على الخصوص ، جمهرة كبيرة من صقالبة (سلاف) الجنوب .

ولكن المسلمين تدفقوا ايضاً ، من آسية ، الى العاصمة الجديدة — التي ما لبث ان خضع لها معظم المسلمين في العالم — لكي يستغلوا مزايا المدينة التجارية ذات الموقع الجغرافي الفريد ، ولكي يفيدوا من الاوقاف التي انشأها هناك ، محمد وخلفاؤه ، لخدمة العلم وطلابه . وسرعان ما انتهت استانبول الى ان تكون المركز الفكري الاول في العالم الاسلامي .

آثاره العمرانية : آيا صوفيا

واختيرت كنيسة القديسة صوفيا لتكون جامع العاصمة الرئيسي عقب الفتح مباشرة ، فلم يقتض تكييفها وفقاً لحاجات الطقوس الاسلامية الا تعديلات قليلة . ولما كان الاسلام الرشيد ينهى عن تصوير الكائنات الحية فلم يكن بد من ان تغطى روائع الفسيفساء الذهبية التي تزين العقود وتمثل الفن البيزنطي احسن

تمثيل ، بطبقة من الكلس . اما القبلة فقد أُدخلت على تصميم هذا البناء الكنسي بواسطة محراب اصطنع في وسط جناح الكنيسة الجنوبي . والى يمين المحراب ، على عمود الكنيسة الجنوبي الشرقي الكبير ، أُقيم المنبر تجاه المقصورة بمشبكاتها الخشبية المذهبة . ومهما يكن من شيء فالنقوش الضخمة التي كتب بعضها باحرف يبلغ طولها تسعة امتار ، والتي تنتظم اسم الجلالة واسم الرسول واسماء الخلفاء الاولين مرقومة بماء الذهب على لوحات مستديرة كبيرة اقيمت على جدران الجامع واساطينه ، فلم ُتستحدث الا في عهد مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) . أما من الخارج فقد اقتضى تكييفها وفقاً للحاجات الاسلامية انشاء اربع مآذن ، ُرفعت أُولاها في عهد محمد نفسه ، ثم أُضيفت اليها ثلاثٌ أُخر في عهد سليم الثاني وخلفائه . ولقد نصب سليم هذا ايضاً فوق القبة الرئيسية ، هلالاً من البرونز قطره ثلاثون متراً . وكما ُعدل بالمخطط الاصلي لكثير من القباب الجرمانية عن شكله الاول بسبب من اضرحة الاساقفة التي اقيمت فيها ، فكذلك انتهت آيا صوفيا على تعاقب الايام ، الى ان تنتظم انواعاً مختلفة من الاضافات كالتُرَب ، والمدارس ، والدعائم الخارجية بخاصة .

جامع السلطان محمد

وكان محمدٌ يعتبر من اعظم واجباته كحاكمٍ أن يشيد منشآتٍ جديدةً ايضاً . فعهد الى المهندس اليوناني خريستودولوس في ان يشيد الجامع المعروف باسمه (المحمدي او جامع السلطان محمد الفاتح) في قلب العاصمة ، على انقاض الكنيسة الرسولية التي

كانت في وقت مضى مدفن الأباطرة . فنهض بعبء العمل ما بين
سنة ١٤٦٣ وسنة ١٤٦٩ ، فاذا الجامع اروع آثار العمارة العثمانية
وادناها الى الكمال . ومهما يكن من شيء فقد أخربت الزلازل
بناء الجامع الاصليّ ، مرّاتٍ متعددة آخرها سنة ١٧٦٧ حتى لقد
عفت آثاره وغابت ، او كادت ، تحت البناء الحاضر . وههنــا
مزج المهندس ، كما أبان غورلت * ، تصميمي الكنيسة الرسولية
وكنيسة القديسة صوفيا . فأما الجزء الداخليّ المصلب الشكل
فتعلوه القبّة المركزية الضخمة التى تقوم على اربعة اعمدة بين اربعة
من انصاف القباب المتماثلة في الاتساع ؛ في حين تظلل الزوايا اربعٌ
من القباب أصغر حجماً . وينعم هذا الجزء الداخلي بالنور الساطع
يتدفق اليه من صفوف النوافذ الستّة القائم بعضها فوق بعض .
وثمــة مئذنتان نحيلتان ترتفعان فوق الجامع الذي يحتلّ وملحقاته
من المدارس والحمامات والمطابخ ، بالأضافة الى ما يدعونه الخان
(وهو بيت ينزله التجار الغرباء فيَطعمون وينامون) ودار العجزة
والمستشفى ، قمةَ الربوة التي تعلو الجسر القديم ، بكاملها . والى يمين
الباب الرئيسي لوحة رخامية رُقم عليها باحرف من ذهب ، هـذا
الحديث النبوي ، الذي تحقق بعد : « لتفتحُنّ القسطنطينية ، ولنعم
الامير اميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش . » **

---

* Gurlitt

** ورد في « الجامع الصغير » للسيوطي وفي « السراج المنير شرح الجامع الصغير » للعزيزي (مصر ١٣٠٤) جزء ٣ ص ١٩٢ . ولا ذكر للحديث في الكتب الستة او كتب الحديث المتقدمة الاخرى . [المعربان]

وبالأضافة الى عشرة مساجد اخرى بنى محمد ، سنة ١٤٥٩ ، المسجد القائم قرب ضريح الشهيد أبي أيوب الأنصاري الذي لقي وجه ربه سنة ٦٧٨ أثناء الهجوم العربيّ الأول على القسطنطينية ؛ فلما القى [العثمانيون] الحصار على القسطنطينية رأى الشيخ آق شمس الدين ، في ما يرى النائم ، مكان القبر ، « فاكتشفه » بالقرب من السور ، ملهباً بذلك العاطفة الدينية في نفوس جنده . والى جانب هذا المسجد المشيد كله بالرخام الابيض ، وفي مقام الشهيد الذي لايعدو ان يكون بناء مربعاً بسيطاً تعلوه قبة ، كان السلاطين يُقلدون ، في احتفال رسمي ، عقب ارتقائهم العرش ، سيف عثمان من يد شيخ الطريقة المولوية (بيوك چلبي) . ولقد دُفن ، غير بعيد من هذا المقام ، عددٌ من السلاطين ، واقربائهم ، وكبار النبلاء والوجهاء . وسرعان ما اضيفت الى كلٍ من هذه المساجد التي شيدها محمد مكتبات حافلة بكنوز من الآداب الاسلامية الثلاثة * لا تضاهى غنىً واتساعاً . ليس هذا فحسب ، بل لقد الحقت بهذه المساجد معاهد للتعليم تتسع لسكنى الاساتذة والطلاب ومستشفيات ومطاعم للفقراء وخانات وحمامات وآبار كان السلاطين ووزراؤهم يتنافسون في انشائها وتعهدها .

والواقع ان تخطيط اهم المباني المدنية في العاصمة يرقى الى عهد الفاتح أيضاً . فقد اعاد انشاء الاسوار المحيطة بها ، وبنى عند طرفها الجنوبي الغربي ، الى جانب بحر مرمرا ، قلعة الابراج السبعة (يدي

* يقصد التراث الفكري بالعربية والفارسية والتركية . [المعربان]

قوله) التي اتخذت في ما بعد سجناً للدولة ، فكانت تشهد في بعض الاحيان سفراء دول اوروبية عظمى في جملة المعتقلين ضمن حيطانها.

وانشأ محمدٌ احواضاً لبناء السفن ودور صناعة (مخازن للسلاح) في الميناء ، وحتى القسم الاساسي من السوق العامة كان من عمله هو . وفي سنة ١٤٥٤ شرع في تشييد قصره ، السراية ، على ربوة مرتفعة في داخل المدينة . ولقد اصطُنع هذا القصر ، في ما بعد ، مقراً لوزير الحرب (سر عسكر) . ثم انه اخذ في بناء قصر جديد سنة ١٤٦٤ ، عند طرف المدينة الشرقي المبترد بمياه بحر مرمرا ، حيث كان اباطرة الروم ينزلون قبل ان نقل مانويل كومنينس مقر قيادته الى القرن الذهبي ، شمالي الفنار . والاثر المدني الوحيد الباقي من عهد محمد الفاتح هو « چينيلي كوشك » الذي شُرع في تشييده سنة ١٤٦٦ ، وأتم سنة ١٤٧٢ ، وجدد بناؤه سنة ١٥٩٩ ، والذي يضم جانباً من المتحف الوطني ، اليوم .

اخضاع بلاد الصرب

كان اول هدف ترمي اليه سياسة [السلطان] محمد التمكين لسلطته في شمالي شبه الجزيرة البلقانية ، حيث كان المجر الاشداء في الحرب لا يزالون يتهددونها ، بحكم قربهم من تلك الديار ، باعظم الأخطار . من اجل ذلك كان حتماً عليه ان يقضي على استقلال بلاد الصرب ، لكي يضمن لجيشه قاعدة ثابتة يستطيع الانطلاق منها لحرب المجر . اما ذريعته الى ذلك فكانت تلك القرابة التي ربطته بسلالة لازار ِڤتش السابقة من طريق زواجه ، من احدى اميرات هذا البيت المالك ، زواجاً اجبارياً . وهكذا تقدم الى

الامير جورج برانكوفتش ، سنة ١٤٥٤ ، بالتخلي عن امارته ، فلم يكن من هذا الاخير إلا ان التجأ الى حمى هونيادي في المجر. وعلى الرغم من ان المجريين طردوا القوات العثمانية من قلعة سَمَنْدَرِيه التي سبق لها احتلالها، وهزموا قائد جيوش السلطان محمد ، فيروز بك ، عند كرو شِفاتز ، هزيمة قاسية ، فقد اضطروا الى ان يقنعوا بالاحتفاظ بخط الدانوب [نهر الطونه] ، بعد ان يئسوا من الحصول على الامدادات التي توقعوا قدومها من اوروبة . وفي سنة ١٤٥٦ ، تقدم محمدٌ بنفسه الى بلغراد ، على رأس جيش عظيم ، وضرب الحصار عليها من جهة البر . ولكن هونيادي اندفع الى المدينة المحاصرة ، عبر الدانوب ، على رأس جيشٍ مختلط من الصليبيين ، وكثرتهم الكاثرة من الطبقات الدنيا التي حركها الراهب كابِسترانو الى الجهاد ، فوفق في ٢٢ حزيران الى ان يقضي على هجوم العثمانيين الرئيسي في معركةٍ طاحنة أصيب فيها السلطان محمد نفسه بجرح بليغ ، فاضطر الى الانكفاء بجيشه الى صوفيا . ولكن كلا البطلين المدافعين عن بلغراد ، هونيادي وكابسترانو ، ما لبث ان توفي في السنة عينها ، يوم ١٤ آب، ويوم ٢٣ تشرين الاول ، على التعاقب. حتى اذا توفي جورج برانكوفتش ايضاً ، بعد عامين اثنين ، واصطرع وارثوه في سبيل العرش وُفق السلطان محمد الى اخضاع بلاد الصرب في غير ما مشقة ، والى تحطيم المقاومة الشعبية من طريق المذابح ، والاسترقاق ، واخراج الاهلين من ديارهم الى اجزاء الامبراطورية الاخرى.

وفي اثناء ذلك ، كان السلطان محمد قد هاجم ، في شبه جزيرة

المورة ، الامير بليولوجوس الذي انتقض على حكمه بالاتفاق مع جورج كستريوتا (اسكندر بك) الالباني . وهنا اعيد الامن الى نصابه ايضاً بعد فظائع مهولة كانت توقع في نفس السلطان بهجة متعاظمة ، عاماً بعد عام .

أوزون حسن ونهاية اسرة كومنينس في طرابزون

وفي السنة ذاتها قضى محمدٌ ايضاً على آخر السلالات اليونانية [الرومية] في آسية الصغرى ، وهي سلالة كومنينس في طرابزون التي كانت، حتى ذلك الحين تطمع في الحصول على تأييد اوزون حسن ، خان التركمان المعروفين باسم آق قيونلي . وكان اوزون حسن في حرب مع خصومه التركمان المعروفين باسم قره قيونلي والمتمذهبين بمذهب الشيعة ، في حين اخذهو وعشيرته بمذهب السنة . وكان قد وضع الاساس ، وهو في مقره القبلي بديار بكر ، لدولة واسعة في ارمينية ، حتى اذا تم له النصر على قبائل قره قيونلي ضم اليها فارس والجزيرة الفراتية . وفي سنة ١٤٥٨ زوّج داود آخر اباطرة طرابزون من آل كومنينس ، كاترينا ابنة اخيه وسلفه كالوجوانّس من اوزون حسن . وفيما كان السلطان محمد منهمكاً في اخماد ثورة إسفنديار اوغلو في سِينوب هاجم اوزون حسن – وكان قد اعلن رغبته في السيادة على شرقي آسية الصغرى بما وجه من الرسل والسفراء الى القسطنطينية سنة ١٤٥٧ و ١٤٦٠ – الاراضي العثمانية ، واعمل السلب والنهب في البلاد المحيطة بتوقات واماسيه . فلما كان ربيع سنة ١٤٦١ انقلب محمدٌ الى حرب التركمان بعد ان فرغ من فتنة سينوب . حتى اذا هزم

قائده احمد باشا مقدمتهم لم يجرؤ اوزون حسن على ان يرمي بفرسانه ، المفتقرين الى النظـــام ، في وجه الانكشارية المنتصرين . والواقع أن والدته سارة خاتون التي اظهرت براعة ديبلوماسية فائقة في منازعات سابقة ، قصدت بنفسها الى معسكر السلطان محمد ، فمثلت بين يديه ، واستطاعت ان تثنيه عن القيام بأي هجوم جديد على ابنها . بيد انها عجزت عن ان تعطف قلبه على طرابزون فاحتلت القوات العثمانية المدينـــة ، وسيق آخر الاباطرة وجماعة النبلاء الى استانبول ، وبيع معظم السكان المدنيين في اسواق الرقيق . وأياً ما كان ، فقد وضع المنتصر جزءاً من الخزانة الامبراطورية تحت تصرف سارة خاتون لمصلحة كنتها [كاترينا] .

الحرب مع البندقية

وكان نشاط محمد في المورة قد ترك ، قبل ذلك ، اسوأ الاثر في علاقاته بالبندقية ، وهي القوة الوحيـــدة التي كان لا يزال في استطاعتها ان تقاومه على الارض اليونانية . والواقع ان الخلاف بين الفريقين تفاقم غير مرة حتى أمسى الاصطدام بينهما امراً محتوماً. فلما كان خريف سنة ١٤٦٢ اندلعت نار الحرب ، لسبب تافـــه حقير ، فاذا بعبئها الاعظم يقع على عاتق جورج كستريوتا الذي اغراه البنادقة بخرق الهدنة . وخاض السلطان محمـــد بنفسه غمرة القتال ، فحاصر جورج في قَرُوْيَه ، سنة ١٤٦٦ ، حتى اذا توفي هذا الاخير بعد عامين قضى محمد على استقلال الالبانيين ، واقام قلعة إيلْبَصان في قلب بلادهم . واخيراً استشعر البنادقة انفسهم

قوة العثمانيين . وفي سنة ١٤٧٠ خسروا ، بعد حصار طويل ، مدينة نغربونت التي تقع في جزيرة أوبَه ، وكانوا قد حكموها طوال ٢٦٤ سنة .

ولكن سادة البندقية ما لبثوا ان وجدوا حليفاً على العثمانيين . ذلك بأن أوزون حسن كان قد فتح فارس ، سنة ١٤٦٧ [١٠] ، وقضى على سلطة القره قيونلي فيها . وما هي الا فترة يسيرة حتى هاجمه خصمه جهان شاه ، سيد القره قيونلي ، في مقره القبَلي بديار بكر ، ولكن أوزون حسن هزمه في ١١ تشرين الثاني سنة ١٤٦٧ ، فقضى نحبه وهو يطلق ساقيه للريح . وبينا كان أوزون حسن يتقدم جنوباً لحصار بغداد ، حظي حسن علي بن جهان شاه بمساعدة أبي سعيد ، أحد أعقاب تيمور . وفي آذار سنة ١٤٦٨ انطلق ابو سعيد هذا من خراسان واحتل العراق العجمي (الشمالي) برمته . حتى اذا ضرب الحصار على محمود آباد في السهول الواقعة جنوبي مجاري نهر آراس السفلى ، محاولاً طرد أوزون حسن من قره باغ ، وقع في الأسر ، واسلم الى احد افراد [السلالة التيمورية] المنافسين له في السلطان ، فأمر به فقتل . أما حسن علي فقد قتل ، في همذان بيد قوات أوزون حسن ، ومن ثم احتل هذا الاخير بلاد فارس كلها ، من غير مقاومة . وكان البنادقة قد بعثوا ، منذ سنة ١٤٦٣ ، برسول الى أوزون حسن ابتغاء عقد تحالف معه ، ضد العثمانيين . وفي شباط سنة ١٤٧١ رجع الرسول الى البندقية

---

(١٠) انظر منيورسكي V. Minorsky, *La Perse au XVè siècle entre la Turquie et Vénise, Publications de la Société des Etudes Iraniennes*, No. 7, Paris, 1933.

يصحبه سفير تركماني . ثم ان كاترينو زينو – وهو ابن أخت زوجة أوزون حسن الطرابزونية – ارسل بدلاً منـــه الى تبريز . وفي السنة نفسها بعث البنادقـة بـ « جيوسافو باربارو » الى فارس ، يصحبه سفير من قبل أوزون حسن ، وستة مدافع ضخمة وستمائة بندقية ، وعتاد حربي ، يحرسها مائتان من القناصة مع ضباطهم . ولكنه توقف عن متابعة السير ، عند قبرس ، اذ كان ثمة اسطول بندقي معقود اللواء لـ « موسنيجو » يعمل على الشواطىء الجنوبية من آسية الصغرى ، محتلاً عدداً من المناطق الساحلية . وفي سنة ١٤٧٢ وجـــه أوزون حسن جيشاً من ديار بكر الى الاراضي العثمانيـــة ، فعاث افراده فساداً في كل من توقات وقيسارية ، ونهبوهما . وبعد ان تبودلت بين العثمانيـين والتركمان مذكرات تزايدت لهجتها شدة وعنفاً ، مع الايام ، لم ير السلطان محمد بداً من ان يقصد بنفسه الى آسية الصغرى ، في آذار سنة ١٤٧٣ . وكان أوزون حسن قد اتخذ من أرزنجان مقراً لقيادته ، مُنزلاً هزيمة قاضية بطليعة القوات العثمانية ، في تَرْجان ، غرة آب سنة ١٤٧٣ . وفي ١٢ آب ، بينا كان يتعقب القوات العثمانية المتراجعة نحو طرابزون ، تقدمت وحدات الجيش العثماني الرئيسية ، يقودها محمـــد بنفسه ، لمقاتلته شمالي ارزنجان ، عند الجبال الفاصلة بين منابع الفرات ونهر چُورُوق . ودارت المعركة سجالاً بين الفرسان ، فترة غير قصيرة ، ولكن الانكشارية والمدفعية العثمانية كان لها ، آخر الامر ، فضل تقرير النصر النهائي . وعمل السلطان محمد بنصيحة كبير وزرائه فلم يتعقب أوزون حسن وجنـوده ، بسببٍ من مصاعب المسالك

والطرق . وسعى البنادقة جهدهم الى اغراء اوزون حسن بشن هجوم جديد على العثمانيين ، ولكن دون جدوى . ذلك بان ثورتي اخيه أُوَيْس وابنه أُوغورلي محمد ، ثم انهماكه بعد اخمادها في تنظيم شؤون فارس والعراق من جديد ، كل ذلك حال دون استئناف خططه في آسية الصغرى . حتى اذا توفي في ٦ كانون الثاني سنة ١٤٧٨ تردّت امبراطوريته ، شأن جميع الممالك السابقة التي نشأت على غرارها ، في مهاوي العدم .

وفي اوروبة تدفقت ارتال الغزاة العثمانية ، بعد ان تحطمت مقاومة الالبانيين ، [الارناؤوط] من البوسنة الى حدود البندقية. واخيراً اعلنت الجمهورية [البندقية] ، في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٤٧٩ ، استعدادها لعقد صلح شريف . والواقع انها تنازلت عن جميع ممتلكاتها في ألبانيا ، وفي جملتها دُراج (دوراچو) وأنتيڤاري وتخلت عن أوبَه ولَمنُوس ، كما تخلت عن سكان تايْجت في المورة . ليس هذا فقط . بل لقد اشترت بمائة الف «دوكه» وبجزية سنوية مقدارها عشرة آلاف «دوكه» حق التجارة الحرة في المشرق ، وحق تعيين عامل في غلطه ، قرب استانبول ، تعهد اليه في الاشراف على مصالحها ، كما كانت الحال قبل وقوع الحرب بينها وبين العثمانيين.

ووجد البنادقة بعض العزاء عندما امسى مركز الجنويين ، قبيل ذلك ، بالغ الحرج . فقد كان الجنويون اشدّ منافسيهم في تجارة المشرق خطراً . وكانت تجارتهم ، حتى ذلك الحين ، تستمد مزاياها الكبرى من ممتلكاتهم الواقعة على الشاطيء الشمالي من البحر الاسود ، ومن «كَفَّه» في شبه جزيرة القِرَم على الخصوص.

ولكن النزاع ما لبث ان نشب بينهم وبين زعماء التتار هناك، واذ قد وقف كبير هؤلاء الزعماء، مَنكلي كراي خان، الى جانب الجنويين في هذا النزاع فقد التمس الزعماء مساعدة العثمانيين. فلم يكن من السلطان محمد الا ان وجه اسطوله في الحال، لقتال الجنويين، فاضطرت كفّه الى الاستسلام في ٦ حزيران. ودمرت المستعمرة الجنوية تدميراً كاملاً لم تقم لها قائمة من بعده، وحمل من لم يُسترقّ من اهلها الى استانبول. اما التتار فأمسوا تابعين للسلطان.

وهكذا استسلمت جميع قوات الارخبيل * للسيطرة العثمانية ما عدا فرسان القديس يوحنا في رودس. ولقد شن السلطان محمد هجوماً على جزيرتهم المنيعة التحصين، سنة ١٤٨٠، فلم يحالفه التوفيق. فأعاد الكرة في العام الذي تلا، ولكن المنية عاجلته ابان الحملة، فقضى نحبه في معسكره في تكفُور چيْري، بين إسْكودار (اسكدار) و «جبسه» بآسية الصغرى، في ٣ نوار، سنة ١٤٨١، وعمره اثنان وخمسون عاماً.

الادب التركي في عهد محمد الثاني

والحق أن السلطان محمد ليمثل اصدق تمثيل العثماني القديم، بجميع فضائله ونقائصه. ذلك بأن همته الجبارة وسعيه الدائب في سبيل اهداف جديدة اقترنا بوحشيةٍ عدَتْ قسوة عصره نفسه، بمراحل بعيدة. وانه ليتحتم علينا ان نعود القهقرى الى عهد «الملوك الاشوريين الكبار» لنقع على ما يوازي معاملته لاسرى الحرب، هذه المعاملة التي كانت تعتمد اكثر ما تعتمد على قطع الجسد نصفين

* ارخبيل بحر سفيد. [المعربان]

بواسطة المنشار . ولكن هذا الرجل الذي ارتكب في حروبه
فظائع أبى رجاله انفسهم في بعض الاحيان ، انفاذها ، كان يجمع
في شخصه جميع مظاهر عصره الفكرية والثقافية . فقد ناصر
العلوم الاسلامية وناصر الشعر بما اغدقه على ممثليها من هبات مادية
سخية . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان مولعاً بان يختبر براعته
الشخصية في ميدان الشعر ، تاركاً للأجيال اللاحقة جمهرة من
الاشعار اعتبرها جديرةً بان تحفظ . وليس من شك في ان شعره
يجري ، كشعر مواطنيه جميعاً ، في فَلك ثابت من الطرائق الفارسية
وان مضمونه الفكري لم يتعدَّ قط حدود القصيدة الغزلية الضيقة
المعروفة منذ عهد حافظ ، والرامية الى اغراض ليست بالصوفية
الخالصة ولا الشهوانية الخالصة ، ولكنها وسطٌ بين ذلك . والواقع
ان السلطان محمداً كان شديد الاعجاب باللغة الفارسية ، عظيم القدر
لها . يدلك على ذلك انه عهد الى الشاعر الاناضولي شَهْدِي في ان
ينظم بالفارسية قصيدة تصور التاريخ العثماني على غرار الشاهنامه
للفردوسي ؛ وان ديوان حَمِيدي ، احد شعراء بلاطه ، ينتظم قصائد
بعضها باللغة الفارسية ، وبعضها باللغة التركية . ولقد كان من
نتائج ذلك ان طغى على المحصول النثري في عهده ايضاً ذلك
الاسلوب الصناعي ، المثقل بالالفاظ الاجنبية ، الذي نشأ في
الدواوين الفارسية . وكان السلطان محمد من المعجبين بتراث الرعايا
المحتقَرين الفني ايضاً . ففي صيف سنة ١٤٥٨ بينما كان يحاول اقرار
السلام في اليونان منح اثينا استقلالها الداخلي ، لافتتانه ببقايا
التراث الكلاسيكي التي كانت لا تزال محتفظة بروعتها وجلالها .

كذلك كان شديد الاهتمام بالنهضة التي تفتحت اكمامها في ايطالية ، فقد طلب الى جمهورية راجونيه * مرةً ان تدفع اليـــه الجزية مخطوطات تجمع من ايطالية . والواقع انه تخطى التحريم الاسلامي للتصوير ، فعهد الى احد فناني البنادقة ، جنتيل بلّيني ، في ان يخرج له صورة زيتية . ولا تزال هذه الصورة محفوظة الى اليوم في مجموعة لايارد بالبندقية .

الصراع بين جم وبايزيد ابني محمد

وبعد وفاة محمد ، عانت الامبراطورية العثمانية ، كرة اخرى ، شرور الحرب الاهلية . ويبدو انه هو نفسه قد اوصى بخلافته لابنه الاصغر ، جَمْ ، الذي كان يقيم في قونية بوصفه حاكماً على قرمان . ومهما يكن من أمر فقد حاول كبير الوزراء ان يعجل في تنصيب جم هذا ، من طريق كتمان خبر الوفاة فترة من الزمان . ولكن خططه ما لبثت ان انكشفت للانكشارية ، فهاجموا القلعـــة في إسكودار ، وقتلوا الوزير ، حتى اذا اندلعت نيران الفوضى ، نهبوا بيوت اليهود والتجار الاجانب . ثم ان بايزيد ، اكبر الأمراء سناً ، دخل مدينـــة إسكودار ، في ٢٠ نوار ، وكان حتى ذلك الحين ، حاكماً على أماسيه ، فاضطر الى ان يغفر لهم فظائع شغبهم ويزيد في أعطياتهم زيادة صارت منذ اليوم عرفاً ثابتاً يطلبون انفاذه كلما تولى الاحكام سلطان جديد .

وكان قد اعتُرف بـ«جم» ، في اثناء ذلك ، سلطاناً في بروسه ، فاقترح على أخيه قسمة الامبراطورية الى شطرين أوروبي وآسيوي .

---

* راغوزه

ولكن بايزيد لم يوافق على ذلك ، بل هاجمه في آسية ، وهزمه عند يني شهر في ٢٣ حزيران . والتجأ جم الى سلطان المماليك ، قايتباي ، في مصر . وبعد محاولة فاشلة في آسية الصغرى ، وكان قرمان اوغلو قاسم بك قد استدعاه اليها ، فرّ الى رودس حيث حاول ان يتحالف مع فرسان القديس يوحنا ومع الدول الغربية ضد أخيه . ولكن الفرسان ما عتموا ان عقدوا صلحاً ملائماً مع بايزيد وفرضوا عليه ضريبة لقاء الحجز على جم في جنوبي فرنسة . وفي سنة ١٤٨٨ أسلموه الى البابا إنوسنت الثامن الذي كان يعتزم القيام بحملة صليبية ضد العثمانيين . ثم ان خلفه الأسكندر السادس[١١] اضطر الى ان يسلمه الى ملك فرنسة ، شارل الثامن ، الذي حاصر رومة ، بين اواخر سنة ١٤٩٤ واوائل سنة ١٤٩٥ . ويُزعم ان البابا كان قد دس السم ، قبل ذلك لـ «جم» بتحريض من بايزيد ، فتوفي [أي جمْ] بنابولي ، في ٢٥ شباط ، سنة ١٤٩٥ .[١٢]

آثار بايزيد العمرانيـة

وقد يكون للرهينة * التي استولت عليها الدول الغربية فترة طويلة من الزمان ، أثر فعال في اتجاه بايزيد نحو سياسة السلم ، ولكن هذه السياسة كانت تنسجم مع أمياله التي فطر عليها ، ايضا .

(١١) وهناك في « دار بورجيا » صورة لـ « جم » كان الرسام بنتوريتشيو قد وضعها للبابا ، وهي محفوظة في الغرفـة الثالثة من الدار ، وتؤلف قسماً من اللوحـة التي تدعى « حياة القديسين » مصورة مثول القديسة كاترينـا الاسكندرانية امام الامبراطور مكسيميانوس .

(١٢) انظر تويازن .L. Thuasne, *Djem-Sultan*, Paris, 1892

* اي جم .

فقد ورث ، كأخيه ، الموهبة الشعرية عن والده ؛ وكان يجد في رعاية العلوم متعة نعقـلـه المتروي ، ولكنه لم يغفل واجباته كسلطان ، فعني على الخصوص بانشاء المباني العـامة الفخمة ، وحسّن شبكة الطرق والجسور التي اقامها اسلافـه في طول الامبراطورية وعرضها، مستعيناً على ذلك بمهرة الصناع من اليونان [الروم] والبلغار . ومع ان هـذه الشبكة أنشئت في المحل الاول لاغراض عسكرية ، فقد يسرت حركة المواصلات العامة وأسدت اليها خدمة جليلة ، ايضاً . بيد ان اعظم آثار بايزيـد العمرانية ذلك المسجد الذي يحمل اسمه ، والذي شيده ما بين سنة ١٤٩٧ وسنة ١٥٠٣ تجاه السراية القديمة في استانبول . ويمتاز هذا المسجد من جميع مباني المدينة بفخامة مواده البنائيـة ، وبزخرفته على الطريقة الفارسية . وانما تظلل رواقه الامامي اشجار السرو والدلب الشامخة ، وتحيط به ، من جهاته الاربع ، عقـود محددة مصنوعة من الرخام الابيض والاسود ، على التعاقب ، ناهضة على أعمدة ثمينة من اليَشْب * والمرمر الاخضر ذات تيجان رشيقة مخروطية الشكل اعلاها اوسع من قاعدتها . وتعلو هـذه العقود سقائف مقبية فخمة الزخرف . اما في وسط الصحن فيرتفع الحوض المثمن ، على عدد من الاعمدة . ولهذا المسجد اربعة ابواب خارجية عالية ، صنعت على الطريقة الفارسية ، وهو يمتاز ايضاً بمآذنه التي لا تنهض ، شأن مآذن المساجد الاخرى ، على الزوايا ، ولكن على أجنحة مستقلة . والواقع ان الحي المحيط بالمسجـد ، ويشمل

* حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه .

«السر عسكر» مقر الجامعة في الوقت الحاضر ، ما لبث ان عُرف كله بحي بايزيد ، (بيازيد ، اليوم) على اسم المسجد و [منشئه].

وكان هذا السلطان المحب للسلام عاجزاً ايضاً عن ان يضع حداً للمنازعات القائمة على الحدود الشمالية من امبراطوريته ، إذ ظلت تنشب بشكل آلي بسبب من نزوع شعبه الى التوسع ، واحوال جيرانهم السياسية القلقة . وعلى الرغم من اخفاق الحملات التي شنها العثمانيون على ترانسلفانيا فقد وفقوا الى احتلال البوسنة برمتها ، كما احبطوا ، بهجماتهم التدميرية ، محاولات البولنديين لفتح البُغدان .

وحافظ بايزيد ، في السنوات الاولى من حكمه ، على علاقاته السلمية بالبنادقة ، غير ملق بالاً الى احتلالهم قبرس وناقسوس . بيد ان العلاقات بين البندقية وفرنسة ما لبثت ان اوقعت الشك في نفسه ، فلما كانت سنة ١٤٩٩ نشبت بين العثمانيين والبنادقة حرب جديدة . وبعد حملات ثلاث كانت سجالاً بين الفريقين ، عقد بايزيد مع البندقية صلحاً (سنة ١٥٠٣) قنع فيه بالاستيلاء على ليبانتي (ناوباقتوس) ومَستينا . وليس من شك في أن الذي رغبته في الصلح ما كان يتهدد امبراطوريته في الشرق من خطر . ذلك بانه خلفت التركمان في فارس ، بزعامة الشاه اسماعيل ، سلالة وطنية [١٣] حظيت بتأييد الشيعة ، وكانوا لا يزالون منتشرين بكثرة في الامبراطورية العثمانية ايضاً . فكان حقاً على بايزيد ان يفرغ لمواجهة هذا الخطر .

---

١٣) سنعرض لذلك في الفصل الثالث من هذا الجزء .

وتميزت أيام بايزيد الاخيرة بالصراع الوحشي الذي نشب بين ابنائه المتنازعين على العرش، وهو بعد على قيد الحياة. وتفصيل ذلك انه اصطفى لخلافته ابنه احمد، احب اولاده اليه، بل لقد اظهر الرغبة في التنازل له عن العرش. فلم يكن من ابنه سليم، الملقب بـ «ياوُز سلطان» (اي السلطان المهول) لميوله العسكرية التي جعلت له شعبية اعظم بين افراد الجيش، الا أن طالب بان تسند اليه امور احدى الولايات العثمانية في اوروبة بدلاً من طرابزون. وكان سليم، وهو اصغر سناً من احمد، يهدف من وراء ذلك الى ان يحول دون ارتقاء اخيه عرش السلطنة. حتى اذا لم يجب الى طلبه هذا برز امام ابواب ادرنة، سنة ١٥١١، على رأس خمسة وعشرين الف رجل، وتحدى والده بالاستيلاء على سنجقي سمندريه و ودين بعد ان لمس بين صفوف الانكشارية تأييداً حماسياً لما تظاهر به من الرغبة في ان ينشىء لنفسه امبراطورية جديدة في الشمال. ولم يوفق السلطان العجوز الى جمع قواته للدفاع المسلح ضد سليم [ابنه] الا بعد ان استولى هذا الاخير على ادرنة عنوةً. وفي ٣ آب سنة ١٥١١ هزم الوالد ولده عند چورْلي. واذ اضطر سليم الى ان يلتمس النجاة في حمى خان القرم، فقد خطر لاحمد ان يحتفل بارتقاء العرش في استانبول نفسها، ولكن عصيان الانكشارية أكرهه على العودة الى آسية. وفي نيسان سنة ١٥١٢ ظهر سليمٌ امام ابواب استانبول كرة اخرى، فاستقبلته الحامية استقبالاً حماسياً. ثم انه اكره اباه على التنازل عن العرش. فاتجه

هذا الى مسقط رأسه ، دِيمْتُوقه ، ليقضي ثمة ما تبقى من ايامه . ولكنه توفي في بعض الطريق ، في ٢٦ نوار ، بعد ان دُس له السم بتحريض من ابنه ، كما يعتقد جمهور المؤرخين ، وهو ظن صائب من غير شك .

ومكن احمد لنفسه في بروسه ولكنه هزم وقتل في اوائل سنة ١٥١٣ ؛ اما ابنه مراد ففر الى فارس . وكان الشيعة قد ثاروا في آسية الصغرى بزعامة شاه قُولي [شيطان قولي] في السنة الاخيرة من حكم بايزيد ، اعتماداً منهم على تأييد اصحاب الأمر في فارس ، وهم شيعة ايضاً . ولكن سليماً اخمد هذه الفتنة ، وشرع ينفذ سياسةً من الاضطهاد الديني العام ضد الشيعة المقيمين في بلاده. فلم يكن من شاه اسماعيل الا ان هب للاثار لاخوانه في المذهب، مهاجماً في الحال آسية الصغرى . عندئذ دعا سليمٌ الناس الى الجهاد ضد الشيعة فأوقع الهزيمة بالشاه عند وادي چالدِران ، بين بحيرة أُرْمِيَة وتبريز ، في ٢٣ آب سنة ١٥١٤ . ثم تقدم الى عاصمة خصمه تبريز ، ومن هناك أنشأ يفكر في التوسع في القارة الاسيوية .

ولكن دولة المماليك بمصر – وكانت القوة الثانية الكبرى في الاسلام يومئذ – اعترضت سبيله هناك . ذلك ان [المماليك] الجراكسة كانوا – شأن جميع حكام وادي النيل الاقوياء – قد احتلوا سورية منذ زمن طويل ، ومن هناك نشروا سلطانهم أبعد فأبعد الى الشمال . والواقع أن الاحتكاك بين العثمانيين والمماليك بدأ اول ما بدأ في عهد السلطان محمد الثاني ، على حدود آسية الصغرى وسورية . اضف الى ذلك ان المماليك اوجسوا خيفة من منافسة السلطان العثماني لهم

في العناية بالحرمين الشريفين وبشؤون الحاج ، وكانت تُعتبر دائماً امتيازاً يستبدّ به اقوى ملوك المسلمين في كل عصر . ولقد احسن المماليك الافادة من سياسة بايزيد غير العسكرية ، فبسطوا سلطانهم على ارمينية الصغرى وقِيلِيقِية ، وبسطوه في اتجاه الشمال ايضاً .

فتح سورية

هناك ، حيث التقت مناطق نفوذ العثمانيين والمصريين بمنطقة نفوذ الفرس كانت سلالة ذي القَدْر التركمانية قد نشرت سلطانها منذ منتصف القرن الرابع عشر على وادي طورُس ، من مَرْعَش الى ألْبِسْتان وملطية حتى خَرْبُوط . وكانت والدة السلطان سليم احدى اميرات هذه السلالة . وعلى الرغم من ان اباها علاء الدولة كان قد تسلم ولايته من محمد الثاني ، فقد كان أعجز من أن يتغلب على احد منافسيه ، من غير مساعدة المصريين . وفي سنة ١٥٠٧ نشب الخلاف بينه وبين شاه اسماعيل بعد ان رفض تزويجه إحدى بناته ، فلم يكن من هذا الاخير الا ان انتزع منه خربوط وديار بكر . وأياً ما كان فقد اتهمه حفيده ، السلطان سليم ، بالوقوف موقفاً غامضاً اثناء حربه مع شاه اسماعيل ؛ من اجل ذلك اصدر سليم امره ، في طريق عودته من فارس ، الى سِنان باشا بمعاقبته على هذا السلوك . وهكذا قُتل علاء الدولة ، العجوز ، في المعركة ومنحت امارته الى ابن اخيه علي بك الذي صحب السلطان سليماً في الحملة الفارسية ، ثم ألحقت نهائياً بالامبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان . وحاول قانصُوه الغُوري ، سلطان

المماليك المتقدم في السن ، ان يقي نفسه من هذا العدوان على منطقة النفوذ المشتركة بينه وبين الفرس فعقد حلفاً مع شاه اسماعيل . حتى اذا خرج السلطان سليم في حملة جديدة على الشاه ، سار قانصوه الى حلب ، متظاهراً بالرغبة في اصلاح ذات البين . ولكن سليماً كان قد بلغ الأرض السورية فأغلظ معاملة السفراء الذين وجّههم الغوري اليه لطلب الصلح ، وهكذا نشبت المعركة بين الفريقين في مرج دابق ، شمالي حلب ، في ٢٤ آب [سنة ١٥١٦] . واذ كان المماليك قد أهملوا سلاح المدفعية بالكلية ، بعد ان اعتبروه سلاحاً لا يليق بهم ، فقد منوا بهزيمة ماحقة ، وقتل سلطانهم فيما هو يلوذ بالفرار . وجثت سورية كلها ، بعد ذلك ، على قدمي الفاتح ، فتابع سبيله الى دمشق ليدخلها في ٢٦ ايلول [من السنة نفسها].

فتح مصر

وكان سليم راغباً ، باديء الامر ، في أن يدع للمماليك حكم مصر شريطة ان يعترفوا بسيادته من طريقي الخطبة والسكة . ولكن طومان باي ، السلطان الجديد ، أبى أن يقر ذلك فسار سليم الى مصر لقتاله . وفي ٢١ كانون الثاني ، سنة ١٥١٧ ، برزت جيوشه أمام ابواب القاهرة ؛ حتى اذا كان اليوم التالي انزلت مدفعيته بالمماليك هزيمة حاسمة . اما قصر السلطان نفسه فلم يسقط في ايدي العثمانيين الا بعد قتال دامٍ في شوارع المدينة . وكان طومان باي قد فرّ الى الدلتا ولكنه لم يلبث ان سُلم غدراً الى اعدائه فأمر السلطان سليم به فشنق في ١٣ نيسان ١٥١٧ .

وكان بين الرهائن الذين أُسروا في المعركة ثم أُعيدوا الى القاهرة

آخرُ الخلفاء العباسيين الذين سبق للمماليك ان منحوهم ، بعد سنة ١٢٦١ ، سلطة شكلية لكي يخلعوا على حكومتهم لونا شرعياً . وتذهب الاسطورة الى ان الخليفة العباسي [المتوكل على الله] قد حُمل الى استانبول حيث أُكره على التنازل عن الخلافة للسلطان سليم . والحقيقة ان سليماً قد أعلن نفسه ، قبل ذلك ، خليفة على المسلمين في خطبة الجمعة ؛ وبوصفه خليفة استلم ، في شهر آب من سنة ١٥١٧ ، مفاتيح الكعبة . ومهما يكن من امر ، فقد ظلت صلة مصر بالامبراطورية العثمانية ضعيفة ، غير وثيقة . وكان السلطان قد عهد باديء الامر الى شمس الدين بن كمال باشا ، العالم الشهير ، في تنظيم شؤون مصر المالية ، فوجد ان الموارد التي يمكن ان تعود على السلطان من هذا الكسب الجديد هزيلة الى حد بعيد. ومع ذلك فقد تعاظم مقدار الجزية المستوفاة من مصر ، حتى في عهد سليمان ، تعاظماً كبيراً بعد ان استعادت البلاد حيويتها بسرعة ، وطفقت امكانياتها الاقتصادية الكبرى تؤتي ثمراتها . ولكن البكوات المماليك ما لبثوا ان انتهوا ، بفضل ممتلكاتهم الغنية ، الى غاية من النفوذ السياسي بعيدة ، حتى لقد اضطر حاكم مصر من قبل السلطان الى ان يقنع من السلطة بمجرد جمع الجزية.

نهاية السلطان سليم

واحدثت فتوح سليم ذعراً صارخاً في اوروبة، حتى لقد خشي البابا ليو العاشر على المسيحية ان تتعرّض سلامتها للأذى ، فشرع يعد العدة لحرب صليبية جديدة . وانما خلدت ذكرى السلطان سليم عند الشعب التركي بوصفه بطلاً من اعظم الابطال العسكريين ؛

من اجل ذلك اطلق رجال تركية الفتاة اسم « ياوُزْ سلطان سليم » على الطراد الالماني « غوبن » الذي فر من وجه الاسطول البريطاني الخاص بالبحر المتوسط ، في آب سنة ١٩١٤ ، وانتهى الى حوزتهم . ولكن هذا الجندي الكبير كان مثل محمد الثاني ، فاتح القسطنطينية ، مولعاً بالشعر فهو ينظمه بالفارسية . ولقد نشر بول هورن ديوانه ، سنة ١٩٠٤ ، بامر من القيصر ولهلم الثاني ، ليقدّم هدية الى السلطان عبدالحميد في طبعة ممتازة اخرجها مكتب الطباعة الامبراطوري . هذا وقد نشأ عن الصراع السياسي مع فارس أن وفق مذهب السنة الى إضعاف النزعات الشيعية – وكانت منتشرة في الاناضول منذ نشأت الامبراطورية ، وما تزال – وزحزحتها عن مراكزها .

ولعل سليماً كان يفكر في استئناف خطته لفتح الغرب ، يوم رجع الى أدرنة ، سنة ١٥١٨ . ومهما يكن من شيء ، فقد كان على أهبة الاستعداد لقتال فرسان القديس يوحنا برودس عندما توفي ، إثر مرض ألمّ به ، في طريق عودته من استانبول الى ادرنة ، في ٢ ايلول سنة ١٥٢٠ .

سليمان الكبير يستولي على بلغراد ورودس

ورقي ابنه سليمان العرش ، من غير ما معارضة [١٤] . وكان ، وهو ولي للعهد ، مستكيناً خوفاً من نقمة ابيه الذي كان ينظر اليه نظرة شك وريبة ذاكراً بذلك حداثته هو . ولكن سليمان

---

(١٤) انظر بابنجر Fr. Babinger, *Suleyman der Grosse*, Stuttgart, 1922, 2 vols.

استطاع الآن أن يغذو خصائصه و كفاياته البارزة حتى لبلغت غاية اكتمالها . والحق انه انصرف ، اول ما انصرف ، الى تحقيق اخطر ما تركه له اسلافه من مهام ، اعني الاستيلاء على الحدود الشمالية . وكان لويز الثاني – وهو قاصر لم يبلغ سن الرشد – يحكم المجر منذ سنة ١٥١٦ ، وكان زعماء البلاد غارقين في خضم من الخلافات الداخلية ، فلم يحسنوا الدفاع عن الحدود ، فتمكن العثمانيون ، بقيادة السلطان ، من احتلال بلغراد سنة ١٥٢١ . ثم ان سليمان اختصر ، بعد هذا النصر ، الحملة الشمالية ابتغاء انفاذ خطة ابيه الاخيرة الهادفة الى فتح رودس ، حيث كان فرسان القديس يوحنا لا يزالون رغم انف العثمانيين ، يمدون حملات القرصان النصارى العائثين فساداً ، بالمساعدة . وفي نهاية تموز ، سنة ١٥٢٢ ، ضرب العثمانيون الحصار على القلعة ولكن قائد المنظمة الاكبر لم يستسلم الا في ٢١ كانون الاول ، بعد ان تكبد الجانبان المتقاتلان خسائر مريعة ، وبعد ان مُنح حرية الانسحاب مع جميع الفرسان ، وتعهدت الدولة بالمحافظة على سلامة اشخاصهم وممتلكاتهم ، وباسقاط الجزية عن اهل الجزيرة الأصليين – وهم نصارى – خمس سنوات كاملة .

وكانت السياسة الفرنسية تقوم على مناهضة اسرة هابسبورج الملكية ، وبذلك استطاع سليمان ان يخطو خطوات بعيدة في سبيل انفاذ خططه ضد جارته الشمالية . والحق ان العلاقات الودية مالبثت ان نشأت ، منذ ذلك الحين ، بين بلاطي باريس واستانبول ، فضمنت لفرنسة ، طوال القرون التي تلت ، مركزاً ممتازاً بين

الدول الكبرى في كل ما يتصل بالسياسة الشرقية .

استئناف الحرب في المجر

وفي سنة ١٥٢٦ استأنف سليمان الحرب ضد المجر . فقتل ملكهم الشاب ، لويز ، وليس له من العمر غير عشرين عاماً ، في موقعة مُهاج (موهاكس) المشؤومة ، وقتل معه صفوة رجاله ، في ٢٨ آب . وفي ١١ ايلول احتل العثمانيون مدينة بودا ، لاول مرة ، وجعلوها طعاماً للنار . ثم ان الحرب نشبت ما بين فرديناند ملك النمسا وجان زابوليا أمـــير ترانسلفانيا بسبب من النزاع على تاج المجر . فلم يكن من سليمان إلا أن ناصر زابوليا على خصمه واحتل بودا كرة اخرى في ايلول سنة ١٥٢٩ ليحتفل فيها بتتويج حليفه ملكاً [على المجر] . ومن ثم تقدم سليمان الى ڤينا ، فحاصرها ، ولكنه اضطر ، في ١٥ تشرين الاول ، الى ان يرفع الحصار عن المدينـة لقلة المؤن . ولم تكن حملة سنة ١٥٣٢ اوفر حظاً من سابقتها ، فقد صمدت قلعة كُوسَك * المجرية الصغيرة في وجه سليمان طوال شهر آب ، فكان عليه ان يقنع بتخريب السهول ، حتى سقوط هذه القلعة في ٢٨ من الشهر نفسه . ولكن اسطول الامبراطور شارل الذي كان يقوده امير البحر الجنوي ، اندريا دوريا ، والذي كان يعمل في نجاح على شواطيء المورة ، لم يلبث ان اضاع على سليمان ثمرة ذلك النصر الجزئي . وفي السنة التالية اعلن السلطان استعداده لعقد معاهدة صلح يعترف فيهـــا بالوضع الراهن لكل من ممتلكات الفريقين المتنازعين ، فقد كانت الاحوال الجاريـة

* Güns

في آسية ، تستدعي اهتمامه وعنايته .

الحرب في فارس

ذلك ان فارس خضعت ، منذ سنة ١٥٢٤ ، لحكم طهماسب بن اسماعيل ؛ وكان طهماسب هذا قد ابى الاعتراف بالسلطان العثماني خليفةً على المسلمين ، متأسياً في ذلك بوالده من قبله . وحدث ان عامل بغداد الفارسي ، [من قِبل طهماسب] خانَ سيده وانحاز الى سليمان فجهز الشاه حملة ضده واخضعه ، فاتخذ سليمان هذه الحملة ذريعة لاعلان الحرب على فارس . فلما كان صيف سنة ١٥٣٤ ، واضطر الشاه الى التراجع في وجه [القوات العثمانية] صار في ميسور سليمان ان يتقدم الى عاصمة الفرس ، تَبريز ، وان يستولي على بغداد ، في تشرين الثاني ، من غير ما عناء . ثم ان سليمان أقر الامن والنظام في هذه الولايات الواقعة على الحدود والتي كان يعتزم الاحتفاظ بها ، لينقلب بعد الى استانبول ، اوائل سنة ١٥٣٦ .

نشوء القوة البحرية العثمانية

وفي استانبول انصرف سليمان الى تعزيز قوته البحرية ، في المحل الاول ، كوسيلة لغسل العار الذي لحق به في الحرب الاخيرة [بأوروبة] . وانما وجد عوناً كبيراً على هذه المهمة في شخص خير الدين بربروسا ، وهو قرصان يوناني من جزيرة «مِدَلِّي» (لسبوس) سلخ هو واخوه عَروج ، سنوات طوالاً يهدّدان بقرصنتهما شواطىء البحر الابيض المتوسط الغربية ، بصورة خاصة . والواقع ان الاحوال السياسية المضطربة ، في شمالي افريقية ، قد ساعدت هذين الرجلين على التمكين لأنفسهما في تلك الديار . وكان سلطان

تونس * محمد [السادس ، ابن ابي] حفص قد عهد الى عروج ، قبل ذلك في حكم جزيرة جَرْبَه . وكان الاسبان قد هاجموا شمال افريقية عدة مرات – لكي يتقوا شرّ القرصنة – فاحتلوا الجزر الجبلية الصغيرة الواقعة تجاه [مدينة] الجزائر على مدى نار المدافع منها ، ومن هناك سيطروا على مدخل الميناء . حتى اذا توفي فرديناند ، التمس اهل الجزائر المعونة من عروج ضد الاسبان الذين عطلوا عليهم مورد رزقهم الاكبر . فلم يكن منه الا ان استولى على المدينة [الجزائر] وضواحيها الخصيبة ؛ وعلى الرغم من انه عجز عن طرد الاسبان ، فقد اتقى عدوانهم على السواحل بمصاولات سفكت فيها دماء غزيرة . وفي سنة ١٥١٨ بسط نفوذه في اتجاه الغرب الى تِلِمْسان ، ولكنه قتل في معركة قطع عليه الاسبان فيها ، خط الرجعة . وكان قد خلف على الجزائر اخاه خيرالدين الذي تولى بعدُ قيادة قواته . واذ قد رأى الى الحكام الجزائريين يتهددونه من كل جانب ، فقد استنجد بالسلطان سليم ، بعيد فتحه مصر مباشرة . فلم يكن من السلطان الا ان الحقه في خدمته برتبة بكلربك ** (امير) وأمده بألفي جندي تركي ،مع مدفعيتهم ، وسمح له ان يزيد في عددهم من صفوف المرتزقة وان يمنحهم حقوق الانكشارية وامتيازاتهم . وفي سنة ١٥١٩ قام خير الدين بهجوم على تونس ، ولكن خيانة بعض جنده قطعت عليه سبيل الاتصال بقاعدة اعماله العسكرية ، فاضطر الى ان يستأنف السلب والنهب في

---

* بضم النون وكسرها ايضاً . [المعربان]

** تلفظ كل من الكاف الاولى والثانية في هذه الكلمة «ياء» [المعربان].

جزيرة جِيْجَل" . والواقع انه وفق هناك ، بما اكتسب من مغانم ، الى ان ينشيء جيشاً جديداً ، والى ان يفتح آخر الامر الجزائر ، ويطرد الاسبان من معاقلهم في جبل « بنيون » . وفي سنة ١٥٣٤ احتل تونس نفسها ، ولكن الاسبان ما لبثوا ان انتزعوها منه ، في عهد شارل الخامس ، حزيران سنة ١٥٣٥ . وانتقل بربروسا ، بعيد ذلك ، الى استانبول لكي يواصل الحرب البحرية ضد الاسبان في عزيمة أقوى وقوة أشد ، وكان قد عُين اميراً للبحر سنة ١٥٣٣ . وفي سنة ١٥٣٧ اعلن سليمان الحرب ، بتحريض منه ، على البنادقة ؛ ففقدوا خلال سنوات ثلاث جميع ممتلكاتهم في بحر ايجه حتى سواحل اقريطش وتِينوس ومَيقونوس . ولكن عنايته الكبرى كانت لا تزال تتجه نحو تحقيق مطامحه السياسية في شمالي افريقية ، على الرغم من انه لم يُقيض له ، بعد ، ان يطأ ثراها ، كرة اخرى . من اجل ذلك ، أيّد في استانبول ، بحماسة بالغة ، مبدأ التحالف مع فرنسيس الاول ملك فرنسة ، ضد الامبراطور شارل الخامس ، وكان هـذا قد هاجم في سنة ١٥٤١ الجزائر ، ولكن جيوش خير الدين ردته عنها . حتى اذا اندلعت نيران الحرب بين فرنسة واسبانية ، من جديد ، هاجم بربروسا ، على رأس اسطول تركي ، الشواطيء الايطالية ، وضرب الحصار على نِيس (نِيسه) . بيد ان صلح كُرَسْبِي الذي عقد سنة ١٥٤٤ ما لبث ان اضطره الى الانسحاب . وتوفي بربروسا بعد عامين اثنين ، تاركاً للسلطان اسطولاً مجهزاً تجهيزاً حسناً ، وبحارة تمرّست بالمعارك ، فغير عجيب ان تثبت بعدُ انها اداة فعالة في تنفيذ سياسة السلطان ومشروعاته .

وكان سليمان قد احرز نصراً مؤزراً على آل هابسبورج ، في البرّ ، وضم الى امبراطوريته مقاطعة ذات شأن عظيم . فلما كانت سنة ١٥٤٣ وتوفي جان زابوليا تقدم الى المجر ليحول دون الاعتراف بفرديناند ملكاً . فدخل في ٢ ايلول مدينة بودا ، وحوّل كنيستها الرئيسية الى مسجد ، واقام ادارة عثمانيـة محلية تتولى الاحكام في بلاد المجر . وفي سنة ١٥٤٧ اضطر فرديناند الى ان يعقـد صلحاً لمدة سبع سنوات ، بعد ان كان الاتراك قد تقدموا لفتح «غران» و«سْتُولْوايْزِنْبَرْج .»

آثار سليمان العمرانية

وفي سنة ١٥٥٠ شرع سليمان ، وقد بلغ أوج قوته وسلطانه ، في انشاء جامع عظيم ، في استانبول ، قُدّر له ان يكسف انوار آيا صوفيا نفسها ، كأثر من أجمل آثار الفن المعماري عند العثمانيين . ولقد أفرد لهذا البناء رقعةً فسيحة من الارض ، الى شمالي السراية القديمة ، واضعاً عدداً من الكنائس القديمة والمواد الاثرية تحت تصرف سِنان ، المهندس المعمار . وهنا ايضاً شُيد الصحن الخارجي في كثير من الفخامة التي تتمثل بخاصة في باب سلطاني اقيم على الطراز الفارسي مقابل المحراب . ونهضت فوق زوايا الصحن الامامي مآذن أربع . أما البناء الرئيسي ذو البلاطات الثلاث فتتوّجه قبة فخمة تقوم على أربع أساطين مربعة ؛ وهي اعلى من قبة آيا صوفيا بخمسة أمتار . والواقع ان جميع جدران الجامع وأعمدته تزدان ، من الداخل ، بطبقة من الرخام المتعدّد الالوان ، في حين ان الجدار الخلفي يزهو ، هو والمحراب ، بالقاشاني الفارسي . ولقد عُهد في زخرفة نوافذ هذا

الجدار التسع الى سَر ُخوش ابراهيم ، اشهر الرسّامين على الزجاج في ذلك العصر ، فأخرجها في ألوانٍ متوقدة،شديدة الوهج. والذي يؤخذ من السيرة التي وضعها سِنانٌ المهندس المعمار مترجماً فيها لنفسه ، والتي ُطبعت في استانبول سنة ١٨٦٥ ، انه * قد أُلحق بفرقة الانكشارية على عهد السلطان سليم الاول وأنه شارك في حملات بلغراد ، ورودس ، وُمهاج (موهاكس) كمحارب، في حين شارك في حصار ڤينا بوصفه رئيساً لفرقة المهندسين. وبعد إقامة متطاولة في بغداد التحق بخدمة السراية ، ليُعيّن بعد قليل رئيساً للمعمارين (سر معمار) . والحق أنه تكشّف في منصبه هذا عن نشاط عجيب فأنشأ ، بأمر من السلطان ، واحداً وثمانين جامعاً كبيراً، واثنين وخمسين مسجداً صغيراً ، وخمساً وخمسين مدرسة ، وسبعة معاهد لدراسة القرآن ، وسبعة عشر مطعماً عمومياً ، وثلاثة مستشفيات، وسبعة كتاتيب لحفظ القرآن ، وسبعة جسور ، وثلاثة وثلاثين قصراً ، وثمانية عشر خاناً ، وخمسة متاحف ، وثلاثة وثلاثين حماماً، وتسعة عشر ضريحاً (أو ُقبّة) .

الصراع بين ابناء سليمان

وما عتم الصراع أن نشب بين ابناء سليمان بسبب من نظام الحريم (تعدّد الزوجات) ، هذا النظام الذي لم ينج احدٌ من السلاطين العثمانيين من عواقبه الوخيمة، إلا قليلا . وتفصيل ذلك ان مصطفى، ابنه البكر، وكان اثيراً لدى الجيش، اضحى موضع الريبة عند ابيه

---

* اي سنان ، وكان من اولاد الاسرى الذين كانوا يؤخذون كجزء من الغنيمة ، [ويدعوهم الاتراك عجم اوغلان] .

بسبب دسائس محظية روسية الاصل ، هي : « روقسلانه نُخرّم »
وصهرها الصدر الاعظم رُستَم . فلم يكن من سليمان إلا ان امر
بقتل ابنه هذا خنقاً في سرادقه في أرْكلي ابان حملة قام بها [سليمان]
على بلاد الفرس سنة ١٥٥٣ . ولكن حرباً فعلية ما لبثت ان
شبت بعد ذلك بين ابناء روقسلانه ايضاً . وكان مصطفى رضا ،
المهذب الخاص لسليم ثاني اولاد سليمان [من روقسلانه] قد القى
بذور الشقاق - بتحريض من رستم ، على ما تقول المصادر - بين
سليم هذا واخيه بايزيد ، الذي كان اصغر منه سناً واوفر موهبة .
وفي سنة ١٥٥٩ اتفق الاخوان على ان يجريا تبادلاً في الولايات التي
يحكمانها: وكان المفروض أن يستعيض بايزيد عن قونيه بأماسيه ،
وان يستعيض سليم عن مغنيسيه بكوتاهيه . بيد ان بايزيد ابى ان
يرضخ لهذا التدبير وحشد جيوشه للقتال ، فهزم في قونيه ، في ٣٠
نوار سنة ١٥٥٩ ، وفر الى فارس. ولكن الشاه اسلمه الى السلطان
سليمان ، حتى اذا كان يوم ٢٥ ايلول سنة ١٥٦١ قدمه والده الى
جلاديه . وهكذا انتهى سليم ، اقل اولاد سليمان كفايةً ، وكان
عربيداً سكيراً ، الى ان يصبح وارث العرش غير منازع .

ومال نجم سليمان - في اواخر ايامه - الى الافول ، في الشؤون
الخارجية ايضاً . فلم تكد تدخل سنة ١٥٥١ حتى اندلعت نـار
الحرب ، كرة اخرى ، في بلاد المجر . وانما تصدى لحرب العثمانيين
في البحر اسطول اسباني متحالف مع فرسان القديس يوحنا الذين
استقروا في مالطة ابتداء من سنة ١٥٣٠ ؛ والواقع ان سليمان بذل
جهوداً كبيرة لاخراجهم من هناك ، ولكن جهوده كلها ذهبت

ادراج الرياح . عندئذ حاول سليمان – من باب التعويض عن ذلك الاخفاق – ان يضع حداً لبطء الحملة المجرية. ففصَلَ من استانبول، في اول نوار سنة ١٥٦٦ ، على رأس جيش قويّ ؛ وكان المرض قد ألمّ به قبل مسيره ، فلم يكد يبلغ سِكَتْوار * – التي ثبتت في وجهه ، بقيادة [نقولا] زْرِيني ، شهراً كاملا – حتى اشتد عليه المرض فقضى نحبه فيها ليل ٥ – ٦ من ايلول ؛ وبعد يومين ليس غير سقطت خرائب القلعة في ايدي الانكشارية . ولقد خلع المؤرخون الغربيون على السلطان سليمان لقب « العظيم ** » تشريفاً له وتعظيما ، في حين شرّفه العثمانيون بلقب القانوني ، (اي المتشرع). والحق انه فاق جميع اسلافه في تعاظم القوة الخارجية تعاظماً يتجلى اروع ما يكون على ضوء التفسخ الذي اصاب الامبراطورية ، وشيكاً ، في ظل خلفائه . ومن هنا كان من الخير ان نقف عند وفاته لنتكلم على المراحل التي اجتازها الشعب التركي في تطوّره الداخلي .

* Szigeth

** «the Magnificent»

حضارة العثمانيين
في اوج الامبراطورية

●

نظام الاقطاع

لم يكن السلطان سليمان قائداً عسكرياً عظيماً ، فحسب ، بل كان الى ذلك منظماً كبيراً حسّن المؤسّسات التي أنشأها أسلافه وتمّمها . فقد كانت الدولة ما تزال تقوم على اساس النظام الاقطاعي الذي اقتبسه الحكام الأولون على الغرار البيزنطي والذي سبق لسليمان ان دوّن احكامه تدويناً مفصلاً . وكان الجنود المستحقون للمكافأة يُمنحون ، باديء الامر ، إقطاعاً صغيراً يكون على مالكيه السابقين ، من الفلاحين ، ان يواصلوا حرثه وزرعه بوصفهم رعايا فهو يغلّ على المُقْطَع دخلاً يتراوح بين ٣,٠٠٠ و٢٠,٠٠٠ « أقْچَه » في السنة الواحدة . وكان على المقطع ، لقاء ذلك ، ان يقدم الى الجيش عدداً من الفرسان يتراوح ما بين الاثنين والاربعة ، أو عدداً من البحارة لخدمة الاسطول . ومثل هذا الاقطاع كان يدعى « تِيمار » وهي ترجمة فارسية لكلمة *pronoia* اليونانية ، المماثلة لكلمة *cura* اللاتينية . وكانت الخدمة الشخصية وحدها هي التي تؤهل التابع

الاقطاعي لاقطاع اكبر ، يدعونه «زعامت» . اما ابنه فكان يتعين عليه ان يبدأ بـ«تيمار». وكان على صاحب الـ«زعامت» (الزعيم) الذي يبلغ دخله مائة الف «اقچه» او يزيد ان يقدم للدولة رجلاً واحداً لكل خمسة آلاف «أقچه» . وكان المفروض ان تعادل «الاقچه» الفضية ، في العادة ، زنة ربع درهم . وفي ايام محمـد الثاني كانت كل اربعين «اقچه» لا تزال تساوي «دوكه» ، حتى اذا كان عهد خلفائه تدهور النقد الى درجة اصبح معها كل ستين اقچه تعدل «دوكه». بقيت الاقطاعات المدعوة «خاص» وهي اعظم من «الزعامت» . وانما كانت تمنح للولاة المحليـين ، ولم تكن لتخضع ، «كالتيمار» و «الزعامت» ، لتفتيش الدفتردارين المكلفين بمراقبة الاقطاعات . وفي عهد سليمان الاول كانت الاراضي المقطعة في اوروبة تقدّم الى الدولة نحواً من ثمانين الف فرس ، في حين كانت الاراضي المقطعة في آسية تقدم نحواً من خمسين الفاً . أما في الولايات الفارسية التي اخضعها العثمانيون فـلم يبق من الميسور انشاء اقطاعات جديدة ، لان احـداً لم يكن ليرغب في الاضطلاع بالالتزامات المتصلة بهـذه المناطق المخربة بسبب من الحملات الحربية المتوالية .

والواقع أن قوى الفرسان الاقطاعية هذه الفت بادىء الامر نواة الجيش العثماني . وكان سلاحهم القوس والنشاب — وقـد عمّر استعمالها اكثر ما عمر بين الآسيويين — والرمح الخفيف والسيف القصير ، وفي بعض الاحيان ، المخصرة الحديـدية والمجنّ الصغير المستدير . اما الدرع والخوذة الشائكة فلم تُصطنعا الا تدريجاً .

وكانت العمامة هي لباس الرأس العـــام ، في العصور السالفة .
وكانت تربية الخيل تعتبر اول واجبات التابع الأقطاعي ، بل ان اهمال ذلك قد يؤدي به الى فقدان الاقطاع ، في بعض الأحوال.

وكانت الاقطاعات العسكرية تنتظم في ألوية أو سناجق ؛ ولم يزد عدد هذه السناجق ، اول الأمر ، على اثنين ليس غير ، بيد أنها تـكاثرت بعدُ فبلغت عِدّتها ٢٩٠ سنجقاً . وكان يحكم السناجق بكوات يعقد لهم لواؤها كما كانت العادة حتى عند العرب انفسهم ، اذ كان اللواء رمزاً للسلطة العسكرية العليا . وكان يرئس بكوات السناجق ، باديء الرأي ، حاكمان يُدعى كلٌّ منهما « بكلربك » ، ويشمل نفوذ احدهما الاناضول ، في حين يشمل نفوذ الآخر الروم إيـلي (اوروبة) ؛ وكانا يحملان ايضاً لقب باشا . فأما باشا الاناضول فـكان مقر قيادته اول الامر في انقرة ، حتى اذا كانت سنة ١٤٥١ نُقل الى كوتاهيه . واما باشا الروم ايلي فاتخذ مدينة صوفيا له مقراً . والحق ان بكلربك الروم ايلي كان ارفع رتبة ؛ من اجل ذلك حفل لواؤه بثلاثة من اذيال الفرَس ، في حين لم يكن زميله الاناضولي ليستحق غير اثنين فحسب . كذلك كان يمثل السلطان كقائد اعلى ، يتعين على الامراء انفسهم ان يطيعوه ويخضعوا له .

ولم يلجأ السلطان الى تعيين باشاوات جـدد الا بعد اتساع الامبراطورية اتساعاً مطرداً في آسية ، وقد كانوا على كلّ حال دون باشا الاناضول درجةً على الرغم من ان جيوشهم كانت اكبر واعظم . وبعد ذلك بمدّة ، شرعت الدولة تضم بعض السناجق الى

بعض لتؤلف البشالق (پاشالق) او الولايات ، ولم يكن عددها يقل عن السبعين عند مطلع القرن التاسع عشر . والواقع ان هذا الصنيع بالذات كان عاملاً من عوامل الفساد الطارئة على ادارة الدولة ، هذه الادارة التي أقيمت ، اول ما أقيمت ، على المركزية الضيقة .

بيد ان النظام الاقطاعي ، الذي استطاع قبل ذلك ان يثبت للتجارب ثباتاً حسناً في موطن العثمانيين الاصلي الصغير ، ما عتم ان اصابه الفساد في الامبراطورية الجديدة المطردة الاتساع . فقد اضطر السلطان الى أن يترك للبكلربكوات امر إقطاع الاقطاعات الصغيرة شرط ان لا يزيد دخلها على ستة آلاف اقچه . ولكن هؤلاء البكلربكوات لم يحجموا عن اقطاع ما في حوزتهم من « التيمارات » لاتباعهم الخصوصيين وللعبيد في الاغم الاغلب – ولا يُتوقع من مثل هؤلاء ان يقدموا مقابل ذلك أيما خدمة عسكرية – بدلاً من ان يُقطعوها المحاربين المجربين . ليس هذا فحسب ، بل لقد ذهبوا ، وشيكاً ، الى ابعد من هذا فصاروا يسرحون جنودهم الاقطاعيين المجربين اذا ما تطرق الى نفوسهم اقل الشك في اصولهم العثمانية . وحاول سليمان ان يُضع حداً لهذه المساوىء بواسطة « قانون نامه » الذي اصدره سنة ١٥٣٠ . فقد نزع من ايدي البكلربكوات حق الاقطاع التحكمي ، وهكذا فقد تعين عليهم ان يقدموا ، منذ اليوم ، شهادة « تذكرة » بالرجل الذي يرغبون في منحه الاقطاع ، فاذا حظي الرجل برضا الباب العالي نفسه (ديوان الصدر الاعظم *) صدرت عن هذا

* كان الصدر الاعظم يدعى « اولو وزير » في القرن السادس عشر .

المقام « براءة » بالاقطاع ، وتُثبت هذه « البراءة » في السجل الخاص بالاقطاعات . ولقد نُظمت الحقوق الوراثية الخاصة باولاد اصحاب الاقطاعات تنظيما دقيقاً . فلم يعد جائزاً ان ينتقل الاقطاع من الاب الى ولده ، مباشرة . بل لقد تعين على الولد ان يقنع باقطاع اصغر ، ريثما يقيم الدليل بأعماله العسكرية على انه خليق بأن يحظى من الدولة بالمثوبة والتقديم . وكان من المفروض ان يتوقف حجم الاقطاع الاولي على ما اذا كان الوالد قد استشهد في الميدان ، أم مات حتف أنفه . اما الاولاد القاصرون فكان من حقهم ايضاً أن يُقطعوا « تيماراً » ، حتى اذا بلغوا التاسعة عشرة ولم يتقدموا الى الخدمة العسكرية خسروا اقطاعهم هذا .

ولكن « قانون نامه » الذي اصدره سليمان لم يوفق الى استئصال شأفة تلك المساوىء جميعاً . فقد اهمل كثير من الاقطاعيين امر الحصول على موافقة الباب العالي على « تذكراتهم » بالصورة التي قدمها عليها « بكلربكواتهم » وذلك هرباً من دفع الضرائب المفروضة ، هذه الضرائب التي كانت قيمتها تزاد ، في احيان كثيرة ، تحكماً واعتباطاً ، وفقاً لاهواء موظفي الباب العالي . ولم يكن من النادر ان يموت « السِپاهي » عن اقطاع له فتقطّع اوصال هذا الارث الكبير حتى يمنح اولاده المتعددون اقطاعات صغيرة ، ليتقدموا عندئذ فقط الى الخدمة العسكرية ، على التعاقب . واخيراً فقد كانت الخلافة الوراثية جائزة في مثل هذه الاقطاعات الآسيوية ، حتى ولو كان الوارث امرأة . ولكن مالكي الاقطاعات الكبرى شرعوا هم ايضاً ، يتهربون شيئاً فشيئاً من الوفاء بالتزاماتهم

العسكرية . وآية ذلك ان عَيْني علي ، ناظر المالية في عهد السلطان احمد الاول ، يشكو في كتابه « قانون نامه » من ان رجلاً واحداً – من أصل عشرة من اصحاب التيمارات الذين كانوا يتنازعون على الموارد ايام الحصاد – لم يكن يبرز الى الميدان عندما يُطلب اليهم خدمة العَلَم . ولكن أياً من « عَيني » هذا او الصدر الاعظم نَصوح باشا لم يوفق في ما بذل من جهد بسبيل اعادة تنظيم التجنيد على الاقل ؛ ولقد كانت نهاية نصوح العنيفة سنة ١٦١٤ [وقد أمر السلطان بخنقه] ناشئة بعض الشيء ، على كل حال ، عن جهوده الاصلاحية هذه .

الجيش

وهكذا انتهى المرتزقة الى ان يؤلفوا ، شيئاً بعد شيء ، نواة الجيش ، بدلاً من القوى الاقطاعية . وكانت اقدم فرق المرتزقة هذه فرق السباهيين ، وهم فرسان الباب العالي . والواقع [١٥] ان الديبلوماسي الفرنسي ، غيسلان دي بوسْبَك الذي مثل الامبراطور فرديناند هابسبورج من سنة ١٥٥٥ الى سنة ١٥٦٢ كسفير لدى السلطان سليمان الثاني ، والذي دوّن ملاحظاته الممتازة عن الامبراطورية العثمانية في عدة مؤلفات ، يتحدث بأعجاب عن جمال افراسهم الرافلة بجهاز يتلألأ بالذهب والفضة والجواهر . اما الفرسان انفسهم فكانوا يلبسون ثياباً من قماش مقصب او من حرير مختلفِ ألوانه ، فهو حيناً قرمزي ، وهو حيناً اصفر زعفراني ، وهو حيناً أزرق قاتم . وكان سلاح كل منهم القوس

(١٥) انظر *The Turkish Letters*, Oxford, 1927.

والنشاب ، ومجنـــاً صغيراً ، ورمحاً خفيفاً ، وسيفاً قصيراً مرصعاً في الاعم الاغلب بالحجارة الكريمة، وصولجاناً معلقاًبقربوس السرج . والواقع ان الاسلحة النارية اليدوية لم تُصطنع الا سنة ١٥٤٨ في الحملة على بلاد فارس ، ولكن هــذه التجربة الاولى اخفقت اخفاقاً تاماً ، في حين كانت المدفعية معروفة ، قبل ذلك، [عند العثمانيين] معرفةً جيدةً . فلما كانت الحروب الاوروبية اضطر العثمانيون لأول مرة الى اصطناع السلاح الحديث، كضرورة لا محيص عنها . ومع ذلك فقد ظلّ السباهيون ، يعتمدون على القوس والنشاب ، في المحل الاول، حتى نهاية القرن السادس عشر.

وُعززت الفرق الاربع التي انشأها اورخان نفسه تعزيزاً كبيراً، وبخاصة في اثناء الحملات الكبرى التي قام بها سليم وسليمان ؛ حتى اذا أقبلت سنة ١٥٣٤ كان عددها قد ارتفع الى ١١،٥٠٠ وكانت الفرق الثلاث الاولى تغذى بعناصر جديدة من الـ «إيچ اوغلان» أي الغلمان النصارى الذي اسروا في الحرب ثم نُشئوا في السراية، بينا كانت الفرقة الرابعة ، وهي الكتيبة الاجنبية الــتي لم تحظ بالاعتبار الرفيع نفسه، تُمَدّ بعناصر من الرجال الداخلين حديثاً في الاسلام . والواقع ان هذه الكتيبة تفسخت تفسخاً واضحاً في اثناء الحروب الفارسية . ذلك بان الشاه كان يدمر الولايات الواقعة على الحدود ، حالما تقترب جيوش الاعداء من بلاده ، ويأمر السكان بالانسحاب الى الداخل حتى يتعذر على المهاجمين ، او يكاد ، امر الاستعانة برجال البلاد وافراسها . وهكذا شق فرسان السِباهية عصا الطاعة سنة ١٥٨٦ ، ولم تهدأ ثائرتهم الا بعد ان نزل السلطان

عند رغبتهم القاضية بان يقودهم بنفسه الى بلاد الفرس. وفي اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر وقع الباب العالي في عجز مالي اضطر معه الى حبس ارزاق الجنود، فثار فرسان السباهية، غير مرة، معلنين عجزهم عن الاستمرار في تغطية نفقات الحملات العسكرية بمرتباتهم الخاصة. ومع الأيام اتسعت شقة المفارقة بين حالة هذه الكتيبة التي يفرضها القانون وحالتها الواقعية، وتعاظمت شيئاً فشيئاً.

ولئن كانت روح البداوة الآسيوية القديمة قد تهذبت، الى حد كبير، عند القوات الاقطاعية وفرسان السباهية، بفضل المدنية والنظام الصارم، لقد ظلت عنيفة قوية في نفوس الـ «آقِينْجي» الذين يؤلفون طلائع الجيش الخيالة والذين لم تكن لهم تعويضات قانونية، فهم يعتمدون في معاشهم على الاعفاء من دفع الضرائب ويفزعون عادة الى السلب والنهب. وكانت هذه الفرقة تتألف في الدرجة الاولى من فلاحي الاقطاعات الذين كانوا يقصدون، من طريق النهب هذه، الى التعويض عما يلحقهم من ظلم وعسف على ايدي سادتهم الاقطاعيين. وفي سنتي ١٤٧٧ – ١٤٧٨ حملت هذه العصابات اهوال التخريب الى سهول البندقية الخصيبة نفسها والى الاودية المرتفعة في جبال الالب في ناحية سَتِيرْيا. ليس هذا فحسب. بل لقد عاثت هذه العصابات فساداً في بلاد المجر، طوال قرن بأ كمله، واستاقت مئات الالوف من اهلها الى اسواق النخاسة.

ولم يكن الدور الذي مثلته القوات الاضافية المجموعة من

البغدان * والأفلاق ** ومن تتار القرم، والكُرْج والاكراد – وكانوا جميعاً يدفعون الجزية – ليختلف عن ذلك الذي مثلته فرق الـ «آقينجي» . وكان خان شبه جزيرة القرم يحتفظ بخمسين الف مقاتل على قدم الاستعداد للهجوم على اطراف بولندة كلما سنحت الفرصة المؤاتية . وكان اهل جورجيا (الكُرْج) والاكراد يقومون بمثل هذه الغارات على الفرس.

الانكشارية

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الانكشارية لا يزالون هم قوام الجيش وعماده . وكان غلمان النصارى المختارون لتزويد هذا الجيش بالعناصر الجديدة يُنشأون في دور الحجّاب الاربع ، في أدرنة ، وفي السراية القديمة والسراية الجديدة في استانبول ، وفي بِيرَه . وكان الغلمان يصنفون اصنافاً خمسة . وكان تدريبهم يلتزم المباديء الانسانية الى أبعد الحدود ، على الرغم من صرامته ، ولا غرابة في ذلك فقد كانت الدولة تقصد الى ان تخلق منهم رجالاً ، لا عواجز او جبناء خوارين . ولم يكن الصف الاعلى الذي يتخرج فيه حجاب السلطان الشخصيون لينتظم اكثر من خمسة وعشرين او اكثر من ثلاثين شاباً . والواقع ان هذا الصف كان مدرسة يُعد فيها المرشحون لتولي اعلى مناصب الدولة والبلاط . والكثرة الغالبة من رؤساء الوزراء انما تخرجت فيه . وعلى الرغم من ان اختيار الصبيان النصارى لهذه الخدمة كان امراً متبعاً في

---

* *Moldavia*

** *Wallachia*

عهد مراد الثـاني (١٤٢١ – ١٤٥١) فالحق انه لم ينظم تنظيما محكماً الا في عهد سليم الاول . وكانت ضريبة الغلمان * تجمع كل خمس سنوات ، (ثم تقاصرت المدة في ما بعد حتى صارت تُجمع ، آخر الامر ، مرة كل سنة) في جميع البـلدان البلقانية ، واليونان ، وفي المجر في ما بعد ايضاً . ولم يُعفَ من هذه الضريبة الا قليل من المناطق المتمتعة بمعاهدات ، من مثـل استانبول ، وغلطه ، ورودس . وكان الاختيار يقع ، في باديء الامر ، على غلام من كل خمسة فقط ، ثم صارت الدولة تنتزع ، في ما بعد ، جميع الغلمان السليمي البنية ممن تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة . ولم يكن ذلك كله ليخلو من التلاعب والعبث بالقانون ، فقـد كان الموظفون يسمحون للآباء الاثرياء بان يشتروا حرية ابنائهم ؛ وكانوا لا يُسلمون جميع المنتخبين الى دور الحجّـاب ، ليبيعوا عـدداً كبيراً منهم للنخاسين ، لحسابهم الخاص . ومهما يكن من شيء فقد كان في المستقبل اللامع الذي ينتظر الانكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة . والواقع انـه استثار حسد الاتراك انفسهم ، فكانوا يسعون ، في احوال كثيرة ، الى دس ابنائهم في صفوف الغلمان من النصارى . ثم ان الدولة اهملت ضريبة الغلمان ، شيئاً بعد شيء ، حتى اذا آذن القرن السابع عشر بالانتهاء اقلعت عن ذلك بالكلية .

وكانت سن الالتحاق بجيش الانكشارية ، باديء الامر ، هي الخامسة والعشرين ، حتى اذا وقعت الحروب الفارسية وفسد تنظيم

---

* « ديو شيرمه » في التركية. [المعربان] .

الجيش ، انتهت هذه السن الى التخفيض . ولم يزد عدد الانكشارية بوصفهم فرقة مختارة ، على خمسة عشر الف رجـــل ، في يوم من الايام . والواقع ان ايما زيادة في عدد الانكشارية أمست عملاً غير مرغوب فيه ، فصُرف النظر عنها بسبب التمرد الذي ذرّ قرنـه سريعاً في صفوفهم . والحق انهم لم يكتفوا بالالحاح في طلب الهبات السخية كلما رقي العرش سلطان جديد ، بل عـدوا ذلك الى ما هو اخطر ، فاكرهوا السلطان سليماً الاول ، مثــلاً ، على ان يقطع ، اثناء الحروب الفارسية رأس الصــدر الاعظم ، ورأس قاضي العسكر ، ورأس قائدهم نفسه . والواقع ان الدولة حاولت ان تخضد شوكتهم من طريق تفريقهم ، وتوزيعهم موقتاً عــلى حــاميات الحدود . ففي سنة ١٥٨١ ، مثلاً ، لم يكن يُعَسْكر منهم ، في استانبول ذاتها ، غــير اربعة آلاف . وتقدّم جيش الانكشارية خطوةً جديدة ، في طريق التفسّخ ، عندما سمحت الدولة لأفراده بالزواج ، حوالى نهاية القرن السادس عشر . فقد كان من نتائج هذا الأجراء العاجلة أن جُعل الانتماء الى جيش الانكشارية وراثياً ، بصرف النظر عن المقدرة العسكرية . ثم كانت الحروب الفارسية المشؤومة ، عهد السلطان مراد الثالث ، فاضطرت الدولة إلى تقوية هذا الجيش كيفما اتفق ، حتى اذا دخلت سنة ١٦٦٠ كانت عِدّته قد بلغت ٥٤٬٢٢٢ رجلاً . ليس هذا فحسب بل إن نحواً من هذا العدد من الرجال اضيفت اسماؤهم الى لائحة المعاشات ، غير انهم لم يتقاضوا تعويضاً ما ، بل اكتفوا بأن تُعفيهم الدولة من أداء الضرائب ؛ ولم يكونوا يقومون ، لقاء ذلك ، بأيّما خدمــة

عسكرية ولكنهم كانوا أبداً على استعداد لتأييد الانكشارية في كل حركة من حركات العصيان والتمرّد . وإذ ازدادت أعطيات الانكشارية تضاؤلاً ، على كرور الأيام ، فقد اضطروا الى أن يعتمدوا في معاشهم ، اكثر من ذي قبل ، على بعض الصناعات اليدوية ، في حين حاول ضباطهم الترفيه عن أنفسهم من طريق الالتحاق بخدمة السفراء الاجانب .

وبينا لم تتخذ الأسلحة النارية سبيلها الى فرق المشاة والفرسان إلا تدريجاً ، نجد العثمانيين يخصّون المدفعية بأعظم العناية ، منذ اللحظة الأولى . والواقع ان محمداً الثاني نفسه جلب صُناع المدافع والمعلّمين المختصّين بهذا الفنّ من المانية وبلاد المجر . ولقد عرف الجيش العثماني ، حتى في ايام بايزيد الثاني ، فرقةً خاصة بالمدفعية (طوبجي) بلغ عدد أفرادها في عهد سليم الأول ألف رجل . فلما كان عهد سليمان عُني ، في المحل الأوّل ، بتكوين فرقة مدفعية جبلية مزوّدة بما تحتاج اليه من قوافل التموين .

والحق ان الجيوش العثمانية كانت تضطر في توغلها في بلاد المجر وفارس ، مجتازةً مناطق اتى عليها النهب ، أو مخرّبة تخريبـــاً مقصوداً منظماً — الى أن تصطحب قوافل عظيمة من المؤن والذخائر . وكانت هذه القوافل تمثل ، منذ البدء ، عبئاً يُثقل كاهل تلك الجيوش . فقد رافق الجيش الذي حاصر ڤيِنّا سنة ١٥٢٩ ، مثلاً ، ما لا يقل عن ٢٢٫٠٠٠ بعير محمّلة بالدقيق . ليس هذا فحسب . بل لقد رافق ذلك الجيش مثلُ هذا العدد من البغال . وكان أمر العناية بهذه الشؤون منوطـــاً بفرقة الـ « وُيْنوق » ، التي كانت

تتألف في الأعمّ الأغلب من الفلاحين البلغار ، والتي كان أفرادها لا يتقاضون أعطيات البتة ، فهم يخدمون لقاء اعفائهم من الجزية ، وغير ذلك من الامتيازات . وكانت المدفعية الجبلية وفرقة مصلحي الاسلحة (جَبه جي) ، تتقدمان الجيش ، عند الهجوم . وكان الانكشارية يرافقون طليعة الجيش هذه ، يتبعهم آغاواتهم واثنان من قضاة العسكر ، والمحاسبون . وكان موكب السلطان نفسه ، يبدو بعد هؤلاء جميعاً ، يحيط به حرسه الخاص وحجابه ، ويرتفع وراءه « بيرق الحرب » وهو العلم الامبراطوري - الذي استبدلت به راية الرسول منذ عهد سليم الأول - والألوية الستة الخاصة بفرق الجيش المختلفة ، بالاضافة الى اعلام ستة صغيرة تمثل فرسان السباهية المرتزقة . أما القلب فكان يحتله الصدر الاعظم والوزراء مع حاشيتهم الغفيرة ؛ ووراءهم باشا الروم ايلي وباشا الاناضول وجمهرة الفرسان الاقطاعيين . وكان باشا الروم ايلي يتقدم زميله في الحملات الاوروبية في حين كان التقدّم لباشا الاناضول في الحملات الآسيوية . وكانت تتبع الجميع في السّاقة (المؤخرة) قوافلُ العتاد والمؤن .

وكان باشا الروم ايلي وباشا الاناضول يتقدمان الى الصف الاول عند ابتداء المعركة ؛ وههنا كان الجناح الايسر يُعتبر محل الشرف . وكان يدعم كلا الجناحين فرقةٌ من المدفعية واخرى من طلائع الجيش الخيالة (آقينجي) ، يتلوهما فرسان السباهية في حين يقف الانكشارية الى الوراء في القلب . وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم ، والى جانبه بيرق الحرب والحاشية السلطانية . والحق أن جميع المصادر الاوروبية حافلةٌ بأطراء روح النظام

التي تكشّف عنها الجيش العثماني . فلم يكن فيه مكانٌ للخمر او القمار ، او البغاء ، وهي آفات لم تسلم منهـــا في يوم من الايام جيوش اوروبة ، لذلك العهد . وكانت الحرب ضد « الكافرين » لا تزال تعتبر واجباً دينياً ، ولقد كان لذلك اثر كبير في ضمان الغلبة على النصارى ، يوم كان الجيش العثماني في اوج قوته .

الاسطول

ليس من شك في ان تاريخ العثمانيين برمته كان يدفعهم الى الحرب في البرّ . واذا كانوا قـــد انساقوا الى حرب البحار ، فبحكم بعض الاحداث والملابسات لا بحـكم ميلهم الشخصيّ الى ذلـــك . والحق ان انتصار البنادقة عـــلى العثمانيين في غاليبولي (٢٩ نوار سنة ١٤١٦) هو الذي حملهم عـــلى التفكير جدياً في انشاء اسطول بحري . ولكن محمداً الثاني كان اول من اورث العثمانيين السمعة الحميدة التي يستحقونها ، في البحر ايضاً . ففي ربيع سنة ١٤٥٦ انطلقت مائة وثمانون سفينـــة شراعية من غاليبولي الى سواحل بحر ايجه ، ابتغاء تدميرها . ثم ان سليماً الاول واصل تعزيز هذا الاسطول ، في نشاط بالغ ، حتى اذا رقي سليمان العرش زادَ عدد سفنه الى ثلاثمائة . وفي عهده وفق القرصان خير الدين بربروسا ، كما ذكرنا آنفاً ، الى ان يحمل الهول الذي كان ينطوي عليه اسم العثمانيين ، حتى الشواطيء الاسبانية . ولكن الاسطول العثماني كان يعوزه ذلك العمود الفقري الذي مكّـن للاساطيل اللاتينية المعادية ، في البحر ، وامدّها بقوة فائقة ، أعني بحرية تجارية قوية . وليس من شك في ان العثمانيين كانوا ، مقابل

ذلك ، متفوقين تفوقاً واضحاً في الثروة المادية ، بفضل الغابات القائمة على شواطيء البحر الاسود ، وكانت تمدهم بمعين لا ينضب من الاخشاب، على الرغم من استغلالها استغلالاً طياشاً غير حكيم. أما المعادن الضرورية لصناعة الملاحة فكانت تقدمهـــا مناجم البغدان والافلاق ، في حين كان قماش الأشرعة يستورد من فرنسة.

وكان الاشراف على بناء السفن في الاعم الاغلب ، في ايدي البنادقـــة ، وكان الصناع والعمال ، في العـــادة ، من اليونان الذين لم تكن خدمتهم في دور الصناعة تتسم بطابع الدوام ، فهي تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف ، ممـــا أضعف الصناعة واضرّ بها. ومع ذلك، فكثيراً ما وقفت اوروبة مدهوشة بالمرونة والسرعة اللتين تمثلتا في اعمال دور الصناعة العثمانية. ولكن اختيار المواد الضرورية لبناء السفن ودقة الصناعة نفسها كانـــا بعيدين عن الاتقان المرغوب. والواقع ان آفة الاسطول العثماني الحقيقية كانت، منذ البدء، فقدان روح الامانة في الادارة وهي آفة قُدر لها ان تستمر جيلاً بعد جيل حتى العصر الحديث. وكان انشاء السفن الحربية المفردة وتسليحها ، حتى في عهد السلطان سليم الاول، يُترك للربابنة ، وكان بينهم في سنة ١٥٩٢ مثلاً ٤٦٠ ربانًا تناولوا المعاشات لانفسهم ولبحارتهم ، في حين لم يزد عدد القائمين بأيما خدمة فعلية منهم على مئة وخمسين او اقلّ قليلاً. وكان الملاحون ، في العادة ، من النصارى الطليان او اليونان الفارين الذين اجتذبتهم الى بيره، زرافات زرافاتٍ، المغانمُ الوافرة التي كانوا يحصلون عليها في خدمة الاسطول العثماني. وكان هنالك بين الملاحين عنصر آخر

أقل جدارة بأن يُعتمد من هؤلاء ، اعني البحارة العبيد الذين كان يشد وثاقهم الى السفينة ، والذين بلغ عددهم في ايام السلطان سليم حداً يكفي لتعبئة اربعين سفينة . غير ان عددهم هـذا تضاءل تضاؤلاً سريعاً بعد مطلع القرن السابع عشر . والواقع ان الدولة حاولت أن تملأ المراكز الشاغرة عن طريق التجنيد المنظم من بين رعاياها الوطنيين . فقد قُسمت الامبراطورية كلها الى مناطق يتعين عليها ان تُسهم في خدمة الاسطول بنصيب محدود . وكان في ميسور المجندين ان يشتروا حريتهم ، من جديد ، فيعتاض الوبان منهم بعبيد اقل نفقةً الى حدّ بعيد . وإذ كانت اوروبة مُثقلةً بتزويد الجيش البرّي بالجنود ، فقد اعتمد الاسطول ، في الدرجة الاولى ، على العناصر الآسيوية ، وهي عناصر اصابها الوهن فلم تبق أهلا لتحمّل التبعات الجسام. وهكذا تطور نظام «البدَل» شيئاً فشيئاً حتى لقد انتهى الى ان يصبح ضريبة خاصة بالاسطول تعود على الدولة بدخل عظيم . والواقع ان جميع أقسام الجيش البري تقريباً قد سيقت تدريجاً الى خدمة الأسطول ، وهنـا اظهر الانكشارية تفوقهم ايضاً ، فكانت بسالتهم ، وبخاصة في اقتحام السفن ، تلقي الرعب في قلوب اعدائهم النصارى .

وكان الاسطول العثماني يتألف من دوارع ثقيلة (ماعون) * تنتظم كبراها ٥٧٦ مقذفاً من العبيد ،(وقد بُنيت سنة ١٥٧٥) ومن طرادات خفيفـة (چكثيري ، چكدري) متوسط عـدد مقذفيهـا مائة وخمسون . وكانت مدفعيـة الاسطول

* « ماونه » بالتركية . [المعربان]

ضعيفة جداً في باديء الامر ، فهي لا تستطيع ان تصطنع اكثر من عشرين مدفعاً ثقيلاً على كل قارب . حتى اذا وقعت معركة ليبانتي (ناوپاقتوس) ومني العثمانيون بهزيمة قاسية عمدت الدولة الى تعزيز قوة الاسطول المدفعية ، فاستوت ومدفعية البنادقة ، من حيث عدد المدافع على الاقل .

وكانت سفن القرصان العاملة في شاطيء افريقية الشمالية تؤلف - ابتداء من عهد بربروسا - جزءاً هاماً جداً من الاسطول العثماني . فقد كان هؤلاء القرصان يلتحقون بأسطول الدولة ، زرافات زرافات ، كلما أزمع السلطان خوض غمار الحرب البحرية لينزلوا ، في حماية هذا الاسطول ، اعظم الاذى بتجارة النصارى . واذ كانت سفنهم الشراعية مجهزه تجهيزاً جيداً بالرجال فقد رحبت الدولة ، باديء الامر ، بمساعدتهم . بيد ان نزعتهم الى الخروج على القانون وعدم الانصياع ما لبثت ان استثارت غضب الباب العالي عليهم ، خاصة وانهم كانوا - ايام السلام - يورطون الدولة في مشكلات دبلوماسية ما تكاد تنقطع .

وتزايدت مهام قائد الاسطول مع نمو الاسطول نفسه . فقد كان والي سنجق غاليبولي هو الذي يقود القوات البحرية ، في باديء الامر ، ولكن الدولة عهدت بعد الى بربروسا ، بوصفه اميراً للبحر ، بالولاية على جزائر بحر إيجه ايضاً ، وبذلك شمل سلطانه اربعة عشر سنجقاً . وإذ كان في ميسوره ان يكسب لنفسه كسباً عظيماً كلما جهز اسطولاً حتى ولو التزم في ذلك منتهى الامانة ، فقد اصبح هذا المنصب اكثر مناصب الدولة ربحاً واعظمها . وعلى

الرغم من ان الدولة اعادت بناء الاسطول ، بعـد كارثة ليبانتي
(ناوپاقتوس) في همة بالغة ، فالواقع انها لم تستطع يوماً ان
تستعيد اعتبارها من طريق نصر مؤزر تصيبـــه في البحر . وما
لبث نشاط الاسطول ان اقتصر ، شيئاً فشيئاً ، على خفر السواحل ،
حتى اذا دخلت سنة ١٥٧٦ لم يكن قد بقي عند الدولة غـير
اربعين قارباً كاملة التسليح ، من اصل الثلاثمائة التي كانت تملكها
من قبل . اما المائتان والستون قارباً الباقية فقد تُركت عزلاء
مهملة في الاحواض وعلى الارصفة البحرية .

السلطان والوزراء

وكان السلطان هو السلطة المهيمنة على الجهـاز السياسي
والعسكري الذي انبثق عن نظام الاقطاع . فقـد كان الامراء
العثمانيون ، اول امرهم ، تابعين اقطاعيين لسلاطين قونية السلاجقة .
ولكن اورخان ما عتم ان تصدّر للسيادة فضرب السكة باسمه ،
وأمر بأن يخطب له على المنابر . أما لقب « السلطان » الذي سبق
للسلاجقة ، منذ الحروب الصليبية على الخصوص ، ان اصطنعوه ،
بموافقة الخليفة ، وبوصفهم حماة الاسلام ، فقـد وفق بايزيد الاول
– كما اشرنا آنفاً – الى الفوز به من طريق الخليفـــة العباسي في
القاهرة ، على الرغم من ان اسلافه حملوه بصفة غير رسمية ، اذا جاز
التعبير ، قبل عهده بزمن . فلما تم للعثمانيين فتح القسطنطينية اتخذ
محمد الثاني لقب سلطان البرين والبحرين . أما لقبا « خُنْكَار » *
و « پادشاه » فكانا اكثر شيوعاً على السنة الناس . وبعد فتح

* من « خداوندكار » الفارسية . [المعربان]

ادرنة تسمى مراد الاول بلقب « خليفة الله » ، أما ما يقال من ان سليماً الأول حمل الخليفة العباسي في القاهرة ، بطريقة من الطرق ، على ان يتنازل له عن هذا اللقب سنة ١٥١٧ فلم يرد إلا في رواية متأخرة . ومن الجدير بالملاحظة ان ساسة العثمانيين لم يوهموا الاوروبيين بان الخليفة يُعتبر ، كالبابا ، الرئيس الروحي الأعلى لجميع المسلمين — فيتعين ، بالتالي ، ان يُخطب له في المناطق الخاضعة لحكم النصارى ايضاً ، وهو ما فعلته النمسا إذْ اقرّت بهذا الحق لعبد الحميد ، بعد ان ضمت اليها البوسنة - نقول ان هذا الايهام لم يقع إلا بعد عقد معاهدة « كوچك قينارجه » سنة ١٧٧٤ ، عندما خضع بعض المسلمين للحكم النصراني . ومهما يكن من أمر ، فالواقع ان نزعة الولاء للحاكم ، هذه النزعة المغروسة في الخلق التركي نفسه ، ازدادت قوة وتأصلاً ، حتى في العصور القديمة ، من طريق بعض العادات الدينية ، حتى لقد تمّ للسلطان من السلطة المطلقة على رعاياه اكثر مما تم لأيما حاكم غربي معاصر . كذلك كانت له سلطة على جميع موارد الدولة ، وهي سلطة مطلقة ما كان ليحدّ منها ، الى حين ، غير القوة ، من مثل استبداد الانكشارية بخاصة . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت الدولة تُعتبر ، من الوجهة النظرية ، ملكاً خاصاً به . وكان محصول الضرائب الصافي بعد تغطية النفقات الجارية ، يصب في بيت ماله المعروف بخزانة الابراج السبعة (يدي قوله) . وليس بين أيدينا إلا تقديرات غير دقيقة عن ضخامة الميزانية العثمانية . ولقد قدّر العالم البيزنطي خالقونديلاس مجموع موارد الدولة ، خلال السنوات العشر الاخيرة

من حكم السلطان محمد الثاني ، بأربعة ملايين « دوكه » . ومهما يكن من امر ، فحوالى منتصف القرن السادس عشر ارتفع هذا المبلغ ، حسب ما جاء في بعض التقارير البندقية الى عشرة ملايين او خمسة عشر مليون دوكه كان نصيب خزانة السلطان مليونين منها ، كل سنة . والواقع ان بعض السلاطين ، ومراد الثالث بخاصة ، كنزوا في خزائنهم اموالاً طائلة ، سحبوها من التداول. وعلى اية حال ، فقد كان على خزانة الدولة ان تنهض بمطالب ثقيلة في اثناء الازمات العامة ، اما في حال تغير السلاطين فقد كانت مطالب الانكشارية كثيراً ما تستنفد جميع ما في هذه الخزانة من المال . وكان الرأي العام يعتبر اهتمام السلاطين بانشاء المباني على نطاق واسع امراً مفروغاً منه ؛ والحق ان جميع السلاطين لجأوا الى ذلك ، خلا نفراً قليلاً منهم .

وانحصرت السلطة السياسية كلها نظرياً ، كما انحصرت فترةً طويلةً من الزمان عملياً أيضاً ، في يدي السلطان . ولكن منصب الوزير – ولم يكن باديء الرأي اكثر من مستشار اول للسلطان – ما لبث ان امسى ، بحكم نموّ الامبراطورية العاجل ، منصباً خطيراً تتعاظم اهميته مع الايام . والحق ان السلطان محمداً الثاني رفع الوزير مقاماً علياً ، في الفقرة الاولى من القانون الاساسي الذي وضعه للدولة ،(قانون نامه) حتى لقد جعله وصياً فعلياً على الامبراطورية [16]. وكان مفروضاً فيه ، بوصفه معتمد البادشاه

---

[16] « ليعلم اولا ان الصدر الاعظم هو رئيس الوزراء والامراء . انه اعظمهم جميعاً ، وصاحب الصلاحية المطلقة في ادارة شؤون [الدولة] . اما القيم

المطلق الصلاحية ، ان يسيطر على فروع الادارة كلها ، وان يقطع في شؤون الدولة جميعاً ، وفي مسائل الموت والحياة ايضاً ، متفرداً مطلق السلطة . وكان الصدر الاعظم يحمل الخاتم الامبراطوري والطغراء السلطانية رمزاً الى ما يتمتع به من قوة ونفوذ ١٧ . كذلك حفظ له نظام التشريفات الخاص بالبلاط مقامه كنائب عن السلطان . فكان يتقبل في ايام ثابتة من الاسبوع - شأن السلطان نفسه - ولاء موظفي البلاط والدولة ، وكان لايظهر للجماهير إلا وسط حاشية ممتازة . وهكذا انتهى قصره في «الباب العالي» حيث كان يجمع رؤساء الدولة للمشاورة ، الى ان يصبح هو مقر الحكومة الحقيقي . أما سليمان الاول فقد حوّل الى ابراهيم باشا - وكان ابوه يونانياً من پَرْغَه - جزءاً هاماً من سلطته الخاصة كسلطان ، وذلك في البراءة (الفرمان) التي رفعه فيها سنة ١٥٢٤ الى منصب الصدارة العظمى . والواقع ان ابراهيم شغل هذا المنصب عدة سنوات ، مؤيداً بكامل ثقة السلطان الذي كان حفياً به ، حتى لقد زوّجه من أخته . ولكن الصراع العائلي الذي عكر صفو السنوات الاخيرة من عهد سليمان عصف بمكانة الصدر الاعظم ايضاً . فقد اتهم ، بادىء الامر ، بانه طامع في عرش المجر ، ثم اتهم بانه طامع

على املاكي فهو الدفتردار . غير ان [الصدر الاعظم] هو رئيسه . وللصدر الاعظم في حركاته وسكناته وفي قيامه وقعوده حق التقدم على جميع موظفي الدولة.» راجع « قانون نامه عثماني » استانبول ، ١٣٣٠ ، ص ١٠

١٧) اما في المراسيم المتعلقة بالشؤون المالية ، وفي القرارات المبنية على القانون الديني (الشرع الشريف) فقد كان الدفتردارية وقضاة العسكر يحملون الطغراء ايضاً . «المصدر نفسه ص ١٦ »

في العرش العثماني نفسه ، وهما تهمتان لم يقم عليهما برهان . وفي ١٥ آذار سنة ١٥٣٦ وُجد مقتولاً في مضجعه، في السراية الملاصقة لسراية السلطان . والحق ان احداً من الصدور العظـــام الذين تعاقبوا من بعده لم ينعم بالمكانة التي نعم بها والسلطة التي تمت له ، غير خلفه الثاني ، محمد صُوَقلْلي ،وكان صقلبياً (سلافياً) من قرية صُوقَلْ في البوسنة ؛ ولكن محمداً هذا كان من الدهاء وبعد النظر بمحل ساعده على اجتناب المخاطر التي طوحت بابراهيم باشا . وكان يطمع في إنماء ثروته باكثر من طمعه في تعزيز قوته وسلطته . ولقد وفق الى ان يضاعف، من طريق الرشوة ، موارد منصبه - وكانت عظيمة في ذاتها - حتى لبلغت ارقاماً خيالية . فقد كان على باشاوات الولايات ان يعيدوا شراء مناصبهم ، كل سنة ، بالهدايا ؛ ويقال ان باشا القاهرة كان يدفع ما يزيد على مائة الف دينار بندقي* سنوياً ، الى صوقللي . وكان هذا الصدر الاعظم يُسند المناصب الشاغرة بالوفاة الى من يمهرها بالثمن الاعلى . أضف الى ذلك انه كان يقبل الهدايا والهبات من الدول الاجنبية : فقد تعـــيّن على القيصر الالماني ان يزيد سراً الى ثلاثة اضعاف [احدى] الهبات الحولية (وقدرها ثلاثة آلاف طالير) التي كانت قد نصت عليها معاهدة السلم الحديثة العهـــد [ليحتفظ الصدر الاعظم بالضعفين لنفسه] . وفي سنة ١٥٧٣ اشترت منه البندقية صلحاً لا يشرف اسمها لقاء خمسة عشر الف دوكه . وطبيعي ان يكون لهذا المثل الخبيث ، يضربه اصحاب المناصب العليا في الامبراطورية ، أسوأ

* « zechino » ويعود اصلها الى كلمة « سكة » العربية . [المعربان]

الأثر في فروع الادارة كلها. وفي ١١ تشرين الأول سنة ١٥٧٩ قُتل صوقللي بيد مجرمة – ولعل اغتياله كان على سبيل الانتقام الشخصي ليس غير – ومن ذلك اليوم فقد هذا المنصب، فجاءة، ما كان له قبل من شأن عظيم واهمية بالغة. وليس من شك في ان النتائج الهدامة الناشئة عن نظام الحريم، هذه النتائج التي استطاع محمد كُوبْرُيلي ان ينقذ الدولة منها بعد قرن من الزمان، كانت هي المسؤولة عن هذا.

ومما تجدر الاشارة اليه انه عندما خوّل محمد الثاني كبيرَ وزرائه تلك السلطة القريبة من المطلقة سارع في الحال فاجلس « وزراء القبة * » الى جانبه، ابتغاء الحد من سلطته. ولكن ما هدف اليه السلطان لم يتحقق في يوم من الايام. وعلى الرغم من ان [اعلامهم] الحاملة شارة مراتبهم الخارجية، وتمثل ثلاثة من اذيال الخيل، كانت تسويهم بالصدر الاعظم فالواقع ان نفوذهم لم يكن كبيراً في يوم من الايام. اما عددهم، وكان مقصوراً اول الامر على اربعة، فقد ارتفع بعد الى ستة. وكان هؤلاء الوزراء كثيراً ما يحاولون ان يحققوا، بطرق خاصة، ما لا تساعدهم صلاحياتهم الدستورية على تحقيقه. وهكذا كان من دأبهم ان يمثلوا دوراً هاماً في المؤامرات التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدارة العظمى من الاساس، وتهديدها باعظم الاخطار.

« الديوان » و « اركان الدولة »

وكما كان « قورولتاي » ** المغول لا يجمع حول الخان امراء

* « قبه وزيرلري » بالتركية. وذلك لأنهم جلسوا مع الصدر الاعظم تحت سقف (قبة) واحد، غير انهم لم يشركوه في السلطة. [المعربان]

** راجع الجزء الثاني ص ٢٦٣

بيته فقط بل ينتظم جميع قواد جيشه للتشاور في شؤون الدولة الحيوية ، كذلك كان عند العثمانيين القدماء ما يسمى « الديوان »، وهو مجلس عام يضم جميع رؤساء الدوائر في الدولة، ويجتمع لبحث القضايا الهامة ، ولتقرير السلم او الحرب بخاصة ، على متون الخيل، كما كانت الحال في عهد البداوة . ولكن « الديوان » ما لبث ان تطور شيئاً فشيئاً مع الزمان ، فاذا هو مجلس وزاري اعتاد السلطان محمد الثاني ، في أواخر عهده ، ان يسند رئاسته الى الصدر الاعظم ، وكان من قبل مجلساً يضم الزعماء على الشكل الذي وصفنا . ولم يحتفظ بحق الاشتراك في هذا المجلس الوزاري غير « اركان الدولة » (اركان دولت) وهم (١) قاضيا العسكر ، وكان احدهما من الاناضول والآخر من الروم ايلي. ثم اضيف اليهما، بعد فتوح سليم الكبرى ، قاض ثالث من افريقية ؛ (٢) وكلٌّ من باشا آسية وباشا اوروبة ؛ (٣) وكلٌّ من الدفتردارين المنوط بهما امر الأدارة المالية في نصفي الامبراطورية ؛ وقد اضيف اليهما ثالث في ما بعد ايضاً؛ (٤) وآغا الانكشارية بوصفهم ممثلي الجيش (٥) وامير البحر (قبودان باشا) – وهو منصب انشيء اول ما انشيء لخير الدين بربروسا – بوصفه ممثلاً للاسطول ؛ (٦) وصاحب التوقيع (نِشانجي) القيّم على خاتم السلطان وطغرائه . وكان كبار رجال الدولة هؤلاء يحملون – شأن رجال الدول الاسلامية السابقة المنظمة على الطريقة الفارسية – ألقاباً معقدةً ، ومحدّدة تحديداً دقيقاً . وكانت هذه الألقاب تُعتبر ، في الحق ، شيئاً ذا أهمية فائقة ، حتى لقد نصّ عليها السلطان محمد الثاني في ختام

الـ « قانون نامه » الذي اصدره ، محدداً كلا من هذه الرتب في دقـــةٍ ووضوح . وكان الديوان يُعقد ، في اطراد اربع مرات في الاسبوع ، أيام السبت والاحد والاثنين والثلاثاء ، في قاعة بفناء السراية الثاني . وكانت المناقشات تبدأ من الصباح ، ثم تتوقف مرّتين ليتناول الاعضاء الطعام معاً ، ولا تنتهي إلا في ساعة متأخرة من الأصيل . والواقع انه كان في ميسور ايّما فرد من افراد الرعية بادىء الأمر ، ان يمثل امام المجلس عارضاً مطالبه ومظالمه ، لتحال بعدُ ، في الأعم الأغلب ، الى الدائرة المختصة لدرسها والبتّ فيها . وكان السلطان يرئس بنفسه جلسات « الديوان » ، ولكنه لم يلبث ان تخلى عن هذه المهمة ، مكتفياً باستقبال المجلس ، عند انتهاء اجتماعاته الاسبوعية ، استقبالاً رسمياً ، ليعرض على مسامعه تقريراً عن اعماله ومقرراته .

وإذ كان لكلٍّ من حاكمي آسية وأوروبة العامين كرسي وصوت في « الديوان » فقد كان لا يزال في ميسورهما ، من غير شك ، ان يؤثرا بعض التأثير في ادارة الولايات . ولئن كانت الرشوة منتشرة انتشاراً كبيراً بين الموظفين في الحكومة المركزية لقد كانت في الولايات غير محدودة ، في الغالب . وإذ قـــد تعين على الباشا ان يعيد شراء منصبه ، من الصدر الاعظم ، كل سنة ، فطبيعيّ ان نجده يبتز ثمن ذلك المنصب من عماله ومن هم دونه ، وأن نجد هؤلاء يبتزونه ، بدورهم ، من رعاياهم . والواقع ان كلاً من الباشاوات العشرين ، بل ان كلاً من بكوات السناجق المائتين والتسعين كان يسعى الى ان يحيط نفسه بحاشية يُفرض على

منطقته الادارية تغطية نفقاتها . وكان مرؤوسوهم ، الصوباشية ، يستغلون دائماً قوة الشرطة الموضوعة تحت تصرفهم ، في سبيل الابتزاز علانية من دون تورّع او خوف . أما في المناطق التي جرى بكوات السناجق على ان يتركوا لبعض الافراد التزام خراجها ، الى اجل مسمى ، فكانت الاحوال اسوأ من ذلك ايضاً . ولكن الشعب الرازح تحت هذا النير الثقيل لم يحاول الثورة على هذه المظالم الا نادراً ، فقد اتحد اليونان والاتراك في قبرس ، مثلاً ، فوُفقوا الى ان يفتكوا بالباشا ويقطعوه ارباً اربأً ، وكان بغيضاً اليهم لجشعه ووحشيته .

القانون والقضاء

ولقد نشأ القانون ، اول ما نشأ ، على اساس عسكري ، شأن آلة الادارة العامة . ومن هنا كان قاضي العسكر لا يزال ، حتى في عصر متأخر جداً ، رأس الهيئة القضائية . والواقع ان السلطان مراد الاول كان اول من احدث هذا المنصب ، على غرار مصري مملوكي من غير شك ، ثم ان محمداً الثاني وسليماً الاول أقاما الى جانب هذا القاضي قاضيين آخرين ، احدهما لاوروبة والثاني لافريقية . ولكن سلطة قضاة الجيش هؤلاء لم تكن مقصورة على الشؤون العسكرية ، بل تعدتها الى القانون المدني برمته . فقد كانوا هم الذين يعيّنون جميع الموظفين القضائيين والقضاة ونوابهم . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانوا يؤلفون ايضاً محكمة الاستئناف العليا التي لم يكن ليحد من صلاحيتها غير سلطة الصدر الاعظم القضائية ، وغير السلطان نفسه . وكان يتلو قضاةَ الجيش في الترتيب العلماء

الكبار ، وهم قضاة العاصمة وعواصم الولايات ، ثم العلماء الصغار الذين كانوا يتولون القضاء في عشر مدن ثانوية من مدن الولايات ، كبغداد وصوفيا . اما قضاة الدرجة الثانية وما دونها فكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث : المفتشين ، والقضاة ، ثم نواب القضاة.

وكان القاضي هو صاحب السلطة القضائية العليا في منطقته . فهو وحده الذي يقضي عند غياب المدعي العام في القضايا المدنية والجنائية وفقاً لمباديء « الشرع الشريف » (أي القانون الديني القائم على اساس من القرآن والسنة) ، وهو الذي ينهض باعمال الكاتب العدل جميعاً وباعداد الوصايا وما الى ذلك . والواقع ان المزايا الناشئة عن سرعة الاجراء التي اتسم بها القانون العثماني كان يقابلها ، هنا ايضاً ، فساد ضمائر القضاة وتردّيهم في مهاوي الرشوة. ولقد حاول بايزيد الاول ، منذ سنة ١٣٩٤ ، ان يضع حداً لهذا البلاء ، المتأصلة جذوره منذ القديم ، في القضاء الاسلامي ، فاحدث رسوماً قضائية معينة ، ولكن محاولته باءت بالفشل .

رجال الدين

وخضعت الهيئات القضائية والدينية كلها ، بعد سليم الاول ، لسلطة مفتي استانبول ، بوصفه « شيخ الاسلام » ، ولكن هذه السلطة كانت نظرية بالكلية . فقد كان عليه ان يفتي في ما يُرفع اليه من المسائل القضائية ، ولكنه لم يكن يملك القوة على انفاذ فتواه ، بالرغم من ان احداً من القضاة ما كان يجرؤ الا نادراً على عدم الرضوح لاحكامه . ثم ان محمداً الثاني وسليمان الاول ثبّتا مركز المفتي الاستثنائي على رأس الادارة برمتها . وفي الحق ان

السلاطين كانوا شديدي الحرص على تأييد سلطته ، اذ كانوا يفزعون الى استغلالها والافادة منها كلما حزبهم أمر أو ألمت بهم احوال سياسية عسيرة . وهكذا استصدر سليم الاول فتوى تبيح له حرب المسلمين في مصر . وفي سنة ١٥٧٠ استصدر سليم الثاني من [الشيخ] ابي السعود ، المفتي الشهير ، فتوى تبيح له ما لا يجوز عرفاً من الاخلال بشروط السلم والمبادرة الى العدوان ضد البندقية عند بداءة الحرب القبرسية . ومهما يكن من شيء ، فقد اغفل السلاطين المتأخرون في اغلب الاحيان ، هذه السلطة الدينية التي لا يبعد ان تكون أثراً باقياً من ذلك العهد الصوفي الشيعي الذي مرت به الدولة قديماً ، خاصة وان اصحاب هذه السلطة من رجال الدين كثيراً ما شاركوا في المؤامرات السياسية واخذوا منها بنصيب .

وكان تثبيت الموظفين الدينيين في العاصمة في مناصبهم منوطاً بالمفتي ايضاً ، في حين نهض قاضي العسكر ، في الولايات ، بهذه المهمة . اما ترشيح الموظفين لهذه المناصب الدينية فكان يُترك ، في العادة ، الى منشئي المساجد . وكان الامام ينهض وحده بجميع المهام الدينية في المساجد الصغرى ، وبخاصة في الارياف ، بينما كان يتوزّع هذه المهام ، في الجوامع الكبرى ، اكثر من رجل واحد . وكانت مهمة الامام ، في هذه الجوامع ، مقصورة على الصلاة بالناس في الاوقات الخمسة المفروضة يومياً . وكان يتقدمه في المرتبة واعظ الجمعة ، او الخطيب ، الذي عُهد اليه ، فوق ذلك ، في تقوية روح الجماعة الدينية ، من طريق الرياضات الرّوحية الاستثنائية . اما

امر العناية بالجوامع من حيث النظافة وما اليها فكان منوطا بالقيّمين . وكان هؤلاء - بالاضافة الى المؤقتين الذين يعينون مواقيت الصلاة وفقاً لساعات الزوال ، والمؤذنين الذين يدعون الناس الى الصلاة - يؤلفون طبقات خاصة من الموظفين الدينيين.

وكان الأعداد للمناصب الدينية يجري وفقاً لتقليد عريق أعاد محمد الثاني تنظيمه من جديد في مرسوم خاص . وتفصيل ذلك أن المرشحين لهذه المناصب كانوا يتلقون العلم في المدارس الدينية الكثيرة التي تنافس السلاطين والوزراء ، تنافساً نبيلاً ، في انشائها في العاصمة والولايات ، بحذاء المساجد عادة . وكانت هذه المدارس تنتظم طبقات ثلاثاً . أما الطلبة بالمعنى الدقيق فقد عرفوا بـ « صُوفْتَه » ، وهو نحت نقع عليه في اللغات الاوروبية وغير الاوروبية ايضاً ، من كلمة « صوفي » العربية ، وكلمة « سوخته » الفارسية ، ومعناها « الملتهب » (اي : بحب الله والمعرفة) . ولقد بلغ عدد هؤلاء الطلبة ، عهد مراد الثاني ، تسعين الفاً منتشرين في ارجاء الامبراطورية ، على ما جاء في احصاء رسمي . واذ كان هؤلاء الطلبة شباباً تعمر قلوبهم الحماسة وتغلب عليهم سرعة الانفعال فكثيراً ما تدخلوا ، في العهود الحديثة بخاصة ، في المسائل السياسية . أما الطبقة الثانية ، وهي اعلى مقاماً ، فكانت تتألف من المعيدين ، او المعلمين . وكان العالم الشاب يحمل ، عند نهاية دراسته ، لقب دانشمند ، او عالم ، ليتخير واحداً من ثلاثة اتجاهات : هي التدريس والقضاء ، والعمل الديني . اما اذا رغب احد من هؤلاء في الالتحاق باحد الصفوف العليا الخاصة بصغار العلماء أو كبارهم فكان

يتعين عليه ان ينصرف ، بوصفه دانشمند ، الى تحصيل العلم في احدى المدارس ، سبع سنوات أخرى . حتى اذا اتم تحصيله هذا تقدّم الى اداء الامتحان أمام المفتي ؛ فاذا ما نجح رُشح لمنصب « مدرّس » . وكان هؤلاء المدرسون ينقسمون ، بدورهم ، الى طبقاتٍ عشر ، مرتبة بحسب أهمية المدن ، وكان صغـار العلماء يُختارون من بين مدرسي الطبقة العاشرة . اما اصحاب المناصب العليا من كبار العلمـاء فـكانوا يفـدون على الامبراطورية العثمانية من مصر ، في الغالب ، ومن فارس في النادر ، حتى اذا سلخوا في خدمة الدولة فترة من الزمان انقلبوا ، في الاعم الاغلب الى اوطانهم الاصلية .

وخضعت حياة الجماهير الدينيـة لتأثير [مشايخ] الطرق الصوفية (الدراويش) المنتشرة انتشاراً واسعاً في آسية الصغرى ، منذ القدم ، وفي الروم ايلي بعد ذلك بزمن ، كالنقشبندية والمولوية والبكتاشية ، باكثر مما خضعت لتأثير رجال الدين الرسميين . والواقع ان نظام الدرجات المتصاعدة في المذاهب السرية كان مصطنعاً أبداً ، بنجاح كبير ، في الطرق [الصوفية] الاسلامية . وبينا كان اتباع هذه الطرق لا يترددون عن الذهاب الى اقصى حد من الصوفية القائلة بوحدة الوجود – هذه الصوفية التي لم تُلغ العقيدة الاسلامية فحسب ، بل حللت اصحابها من وصاياها الاخلاقية ايضاً – كانت العاطفة الدينيـة تنمى عند الناس ، من طريق « الوجد » . وعلى الرغم من ان النظر في الخرافات الدينية كثيراً ما قام بدور لا يستهان به في هذه الامور ، وعلى الرغم من ان

الخرافات نفسها كثيراً مـا كانت مطية يستغلها المشعوذون لمـآربهم النفعية ، فلا بد من الاعتراف بما كان للطرق الصوفية من اثر في تهذيب العامـة وتلطيف مظاهر الهمجية التي سادت حياتها .

الحركة العلميـة

كانت حياة العثمانيين العلمية خلواً ، او تكاد ، من الاصالة والابداع ، فهي تتخذ سبيلها في مجاري التقليد والاتّباع الثابتة . ذلك ان العلم لم يكن يعني ، عند المسلم ، اكتساب معرفة جديدة ، بل التمكن الى اقصى حد مستطاع من المـادة التي انتجتها الاجيال السالفة . وكان اعظم القدر والاعتبار يُخلع على التفقّه في الدين والشرع الاسلامي الذي لم يكن ليُفصل عن القانون المدني ، والذي طغى على هذا القانون ايضاً . واذ كانت امهات الكتب القانونيـة موضوعة بالعربية ، فقد اصطنع العلمـاء العثمانيون ، في آثارهم التشريعية ، هذه اللغة ايضاً ، في الاعم الاغلب ؛ ولم يكتب باللسان الوطني غير بعض الكتب الوعظية الموضوعة لعامة القراء . والواقع ان فضيلة العلمـاء العثمانيين ليست في عمق التفكير وجراءته ، ولكنها في الذاكرة الجامعة والتطبيق الجلد الصبور .

التأليف في التاريخ

ولئن تتلمذ العثمانيون على العرب في العلوم الدقيقة ، لقد سعوا الى تقليد النماذج الفارسية في كتابة التاريخ . والحق ان اقدم المؤرخين الأتراك وضعوا كتبهم باللغة الفارسية . وعلى الرغم من انهم اصطنعوا ، بعد ذلك ، اللسان الوطني فقد جاءت لغتهم في

هذه المؤلفات ملقحة تلقيحاً كاملاً بالالفاظ العربية والفارسية ، في حين نزعوا في اسلوبهم الى تقليد اسلوب الكتابة الفارسي بتكلفه وزخرفه اللفظي — ذلك الاسلوب الذي كان قد طغى طوال قرون على كتب التاريخ الفارسية ، كما طغى ، لمدة قصيرة ، على كتابات العرب التاريخية لا سيما تلك التي وصلتنا من دواوين الحكومة المختلفة . أما من حيث المادة فقد قام العثمانيون بعمل رائع في حقل التاريخ . صحيح أننا لا نعرف عن اوّلية الامبراطورية واحوالها في القرون القليلة التي تلت تأسيسها الا معلومات هزيلة جداً يغلب عليها الاختلاط وتتسم بسمة الخيال فليس من الميسور تعليلها وتمحيصها من غير الاستعانة بالمؤرخين البيزنطيين ، ولكننا نملك — في ما يتصل بالكثرة المطلقة من احداث التاريخ العثماني بعدُ ، وهي اكثر خطراً واعظم شأناً — أوصافاً وروايات مفصلة قيمة جداً وضعها شهود عيان هم ، في العادة ، موظفون كبار شاركوا شخصياً في تلك الاحداث نفسها . والواقع ان المحاولات الاولى لتدوين التاريخ الوطني تدويناً منظماً بدأت في عصر باكر ايضاً . واول أثر من هذا القبيل كتاب وضعه احمد عاشق باشازاده المتصوف ، على عهد بايزيد الاول ، وفي اسلوب شعبي خالص لم يكن قد تحرّر بعد من سلطان الخرافة الغالب عليه . ومنذ القرن السادس عشر شرع الباب العالي نفسه في الاهتمام بكتابة التاريخ ، من طريق تعيين مؤرخين رسميين . وكان سعد الدين المتوفى سنة ١٥٩٩ — وقد شغل منصب مؤدّب الامراء وقضاء الجيش والافتاء — هو اول هؤلاء المؤرخين الرسميين .

ولم تَـغْـزُ المعرفة الغربية حياة العثمانيين العلمية إلا في حقل الجغرافية . ذلك بان الروّاد اللاتين كانوا قد وضعوا — حتى قبل عصر الكشوف الكبرى — كتباً في الملاحة الشراعية ، وأطالس لرحلاتهم . وانما نحا نحوهم ، في القرن السادس عشر ، امير البحر التركي « پيري رئيس » فوصف لنا شواطيء البحر الابيض المتوسط ، بعد ان تمّت له معرفتها من طريق الرحلات العديدة التي قام بها تحت قيادة عمه « كمال رئيس » وتحت قيادة بربروسا في ما بعد . ليس هذا فحسب ، بل لقد جمع ، استعداداً للحرب ضد اسبانية والبرتغال ، معلومات عن الاكتشافات التي تمت لهما في امـيركة . واذ كانت هاتان الدولتان شديدتي الحرص على احاطة هذه المعلومات بسياج من الكتمان فقد تعين عليه ان يتلقفها من طريق العملاء الطليان . ثم انه رسم في غاليبولي ، سنة ١٥١٣ ، خريطة موضوعة على اساس خريطة كولومبس ، تمثل المحيط الاطلسي مع اميركة والشواطيء الغربية من اوروبة وافريقية ، وقد ظهرت عليها الاسماء بالشكل الايطالي الذي تلقاه من عملائه ؛ وفي سنة ١٥١٧ رفـع خريطته هذه الى السلطان سليم في القاهرة . واذ كان من المفروض في هذه الخريطة ان تخدم اهدافاً سياسية معينة فقـد حُفظت في قصر السلطان ولم تنشر شأن الكتاب الذي وضعه صاحبها عن الملاحة [واسمه «بحريّت»] . والواقع انه لم يعثر عليها ، من جديد ، الا سنة ١٩٢٩ في مكتبة السراية . كذلك قدّم الى السلطان سليمان الاول ، سنة ١٥٢٩ ، بعد ثلاث سنوات من انجاز كتابه عن الملاحة ،

خريطة ثانية عثر حديثاً على جزء منها في المكان نفسه ؛ وهي تمثل ايضاً اكتشافات اهل البرتغال في اميركة الجنوبية والوسطى وفي الارض الجديدة (نيوفاوندلاند) ، هذه الاكتشافات التي كان قد جاءه نبأها في تلك الفترة [18] . ووفق پيري رئيس بوصفه امير البحر بمصر ، الى ان يفتح عدن سنة ١٥٤٧ ، ومسقط سنة ١٥٥١ ؛ ثم انه حاصر في ما بعد هرمز على الخليج الفارسي ،حتى اذا جاءته الانباء بان اسطولاً معادياً يقصده ، اضطر الى الانسحاب ، ولكن [عاصفة] حطمت سفنه عند جزر البحرين ، فعاد ادراجه الى السويس ولم يبق من اسطوله غير سفينتين اثنتين . وفي سنة ١٥٥٤ حكم عليه بالموت ،في القاهرة، بسبب من الكارثة التي حلت بالاسطول . وبعد قرن من الزمان نجد حاجّي خليفة — (وكان من اعظم العلماء العثمانيين ، وقد شارك في الحملات الآسيوية كموظف اداري في الجيش فتمت له من طريق الملاحظة الشخصية معرفة بجزء عظيم من الامبراطورية) — يعدّ سنة ١٦٥٤—١٦٥٥ [لوامع النور في ظلمة اطلس مينور] وهو ترجمة تركية لـ«الأطلس الصغير» * الذي وضعه « مركاتور » و « هونداس » . [واستعمل حاجي خليفة لترجمته هذه] طبعة آرنهايم ، سنة ١٦٢١ ؛ مستعيناً [بافرنسي] كان قد اعتنق الدين الاسلامي [وتسمى باسم

---

(١٨) انظر براونلش E.Braünlich, *Zwei türkische Weltkarten aus dem Zeitalter der grossen Entdeckungen*, in *Berichte über die Verh. der Sächs. Akademie der Wiss. in Leipzig, Phil.-hist. Kl.* , *Vol, 89, 1937*.

* *Atlas Minor* of Mercator and Hondius (Arnheim,1621)

اخلاصي شيخ محمد افندي] . والحق انه كان قد رفع الى السلطان محمد الرابع ، سنة ١٦٤٨ ، كتاباً في تاريخ الكون والموجودات اسمه « جِهانْنُما » فلما انجز ترجمة « الاطلس الصغير » عمد الى كتابه هذا فاخرجه اخراجاً جديداً بالكلية ، على اساس الاطلس المشار اليه وغيره من المصادر الاوروبية ، ولكن المنية باغتته ، سنة ١٦٥٧ ، قبل اتمامه . وكان قد نشر ، في السنة التي سلفت ، كتاباً في تاريخ البحرية العثمانية [اسمه « تحفة الكبار في اسفار البحار »].

الأدب والشعر

وكان ابداع العثمانيين في ميدان الادب أقلّ واضأل من ابداعهم في حقل العلم نفسه . وليس من شك في ان البلدان الناطقة بالتركية قد عرفت في القرون الاولى ، شأنها حتى اليوم ، ثروة ضخمة من الاغاني والحكايات الشعبية . والواقع ان «الدراويش» نفخوا في الاغاني الشعبية روحاً قوية من التصوف والدين ، على ما نرى في قصائد «يونس أمْرَه» بخاصة ، التي ظلت حقبةً طويلة تُنشد في حلقات الصوفية واتباعهم ، والتي عمد الى تقليدها خلقٌ كثير. ولم يزدهر هذا الفن في المناطق المركزية من الامبراطورية فحسب ، بل ازدهر في ارجائها الشرقية القصوى أيضاً . وفي القرن الرابع عشر اصطنع نَسِيمي ، شاعر الطريقة الحُرُوفية ، لهجة الاناضول الشرقي وآذربيجان في منظومه — وقد قتل نسيمي هذا في حلب سنة ١٤٠٤ أو ١٤٠٥ بتهمة الزندقة . ثم اصطنع اللهجة نفسها ، في القرن السادس عشر شاعرٌ بغداديّ الموطن اسمه فُضولي. كذلك

كانت القصص الشعبية عن حياة الرسول والحسين الشهيد ، وقد انتشرت بخاصة في الاوساط الشيعية ، وعن حياة الاولياء من الصوفية وسلاطين العصور الغابرة وأبطالها ، تتحدث بأسلوب نثري بسيط الى الفلاحين والجنود ، فتأخذ منهم بمجامع القلوب . ولكن إفراغ هذه القصص نفسها في القوالب الشعرية كان مفضلاً عندهم ، وخير الامثلة على ذلك « المحمدية » الشهيرة التي اتم نظمها يازيجي اوغلو الغاليبولي سنة ١٤٤٩ ، والتي حظيت بمقام رفيع عند الاتراك القاطنين على الجانب الآخر من البحر الاسود . اما جماعة المثقفين فنظرت ، في الغالب ، نظرة ازدراء ، الى مثل هذه الاثار الادبية . ذلك بأن هؤلاء المثقفين كانوا يعتدّون الفرس أيمةً لهم في الشعر شأنهم مع العرب في العلم ؛ ويرون ان تقليد الشعر الفارسي هو وحده العمل اللائق بالعقل المثقف . وهكذا عكف العثمانيون ، بما امتازوا به من جلد ونزعة الى الاتقـان ، على دراسة الشعر الفارسي دراسة عميقة . والواقع انهم قاموا بعمل باهر في ميدان الشرح اللغوي (الفيلولوجي) للنتاج الكلاسيكي عند الفرس . ولقد امتاز في ذلك ، بشكلٍ خاص ، كلٌّ من سُرُوري (الذي لمع عهدَ سليمان الاول والذي كان مؤدّباً للامير مصطفى فوضع له تفسيره الشهير لأثار الشاعر سعدي) و« سُودي » البشناقي . واحتفظ العثمانيون فترة طويلة من الزمـان باللغة الفارسية ، بالاضافة الى قوالب الشعر الفارسي ، حتى ان السلطان سليم الاول نفسه نظم ديواناً كبيراً بلغة الفرس . ولكنهم حاولوا ، الى ذلك ، ان يقلدوا في لغتهم الخاصة فنون الشعر الفارسيّ جميعاً . وكانوا

يعتبرون الغزل تاج الفنون الشعرية قاطبة، ولكنّ شعراءهم الغزلين سعوا الى المجد من طريق واحد ليس غير، طريق التكرار والتوليد في عالم من المعاني والاحاسيس ضيّق محدود. والواقع ان عدداً من السلاطين شاركوا في ذلك ايضاً. وحتى القرن التاسع عشر كان زعيم هذا الفنّ الاكبر هو الشاعر باقي، الذي توفي في استانبول سنة ١٦٠٠، والذي حجبت ديباجته الموسيقية ضحلَ إحساسه الشعري وسطحيته. كذلك نزع الشعراء نزوعاً شديداً الى تقليد «مَثْنَوي» جلال الدين الرومي، و«مثنوي» كل من جامي ونظامي، ذوات الاتجاه الصوفي الرومانتيكي. حتى ابو اسحق الشاعر الفارسي الذي كان يمدح النهم ساخراً متهكماً، وجد بين العثمانيين من يقلده ويترسم خطاه.

« الرعايا » : اليونان

وعلى الرغم من ان العثمانيين لم يكونوا يوماً أولي ضخامة عددية فقد استطاعوا ان يفرضوا سيطرتهم على مناطق مترامية الاطراف بفضل نظام الاقطاعات العسكرية الذي نثرهم في كل مكان، كسادة أثرياء. والحق ان ابواب الدخول في عداد العنصر الحاكم هذا لم تسدّ سداً محكماً على الاطلاق. فقد امتزج الاتراك بسكان آسية الوسطى الوطنيين، حتى في عهد السلاجقة. ولما طاف الرحالة البندقي، ماركو بولو، في تلك البلاد سنة ١٢٧٢ وجد الاتراك لا يزالون بدواً رحلاً يعنون بتربية الماشية، في حين كان اليونان [الروم] والارمن، دون غيرهم، سادة المدن. ولكن سوء الادارة الذي اتصف به الملاكون البيزنطيون الكبار قذف

بسكان الريف اليونان الى احضان الاتراك الذين اجتاحوا المدن ايضاً ، في القرن الرابع عشر . وانما ترينا سجلات البطريركية الارثوذكسية ، لذلك العهد ، كيف تضاءلت قوة الكنيسة في آسية الصغرى وتقلصت ، وكانت من قبل على غاية من القوة والزهو ، في وجه الاسلام والاتراك [19] . والواقع ان العثمانيين رحبوا ، منذ البدء ، بكل من يدخل في الدين الاسلامي ويلتحق ببلاطهم وجيشهم ، ومنحوه حقوق المواطن الكاملة . ولقد كانت احدى الاسر الاربع الاولى التي تؤلف الارستوقراطية العثمانية العسكرية ، وهي اسرة ميخال أوغلو ، تتحدر من اصل يوناني ، ينتهي الى كوسه ميخال ، سيد قلعة « خرمن قيا » القائمة على سفح جبل اولمبوس البيثيني - الذي اعتنق الاسلام سنة ١٣٠٨ وانتهى الى ان يكون بطلاً مغواراً من اخلص الرجال الذين خدموا عثمان وابنه أورخان ، فمُنح رتبة قائد فرقة الآقينجي ، التي توارثها اعقابه من بعده . وليس من شك في ان العثمانيين استطاعوا ان يمتصوا ، من طريق ضريبة الغلمان ، زهرة شباب الامم الخاضعة لهم ، فترة طويلة من الزمان . وقد رأينا من قبل كيف ان هؤلاء الـ « عجم اوغلان » كانوا بمثابة مَعين يقدّم الى الدولة كبار موظفيها الاداريين ، ايضاً . ومن الجدير بالذكر ان [20] « جلزر » احصى الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم ، والامبراطورية العثمانية

---

(١٩) انظر واختر A. Wâchter, *Der Verfall des Griechentums in Kleinasien im XIV. Jahrhundert*, Leipzig, 1903.

(٢٠) H. Gelzer , *Geistliches und Weltliches aus dem griechisch - türkischen Orient* , p. 179 .

في أوج مجـدها وازدهارها ما بين سنة ١٤٥٣ و١٦٢٣، فبلغت عدتهم ثمانية واربعين* صـدراً اعظم، خمسة منهم فقط يجري في عروقهم الدم التركي. اما الباقون فكان توزيعهم على الشكل التالي: واحد جركسي من القبق [القوقاز]، وعشرة من اصل غير معروف، في حين كان ثلاثة وثلاثون من الداخلين حديثاً في الاسلام وبينهم ستة من اليونان [الروم]، وأحد عشر البانياً، وأحد عشر صقلبياً (سلافياً)، وواحد ايطالي، وواحد ارمني، وواحد كرجي من جورجيا (بلاد الكرج). وليس من شك في ان الوضع الاجتماعي الممتاز الذي تمتع به العثمانيون في البلقان قد اغرى كثيراً من رعاياهم ايضاً باعتناق الاسلام، فعل الكثرة من الالبانيين، وفعل طبقة النبلاء البشناق برمتها، هذه الطبقة التي وُفقت بفضل ذلك الى الاحتفاظ بسلطانها القديم على ممتلكاتها. ولكن هؤلاء المسلمين لم يذوبوا في البوتقة التركية شأن سكان آسية الصغرى. فقـد احتفظ الالبانيون والبشناق، كما احتفظ البلغار الذين اعتنقوا الاسلام، والبوماق** وأهل جزيرة إقريطش بلغاتهم القومية. وهذا ما يفسر لنا لم عجز العثمانيون عن فرض سيطرتهم على شبه جزيرة البلقان بصورة دائمة. وكان أهل الأرياف المسيحيون، او «الرعايا»، يشكون، الى جانب فقدانهم الحقوق السياسية، ارهاق الدولة لهم بالعمل الألزامي الثقيل، وبخاصة في الولايات القصوى. وكان عليهم ان يُسهموا في الدفاع عن الدولة من طريق أداء

---

* كذا في الاصل، والملحوظ ان مجموع الارقام الفرعية التالية ٤٩ [المعربان]

** تطلق كلمة «بوماق» على المسلم البلغاري اللسان. [المعربان]

الجزية التي بلغت (في سنة ١٥٩٠) ديناراً بندقياً واحداً على كل فرد او ما يساوي نحواً من دولارين ؛ على ان يتمتعوا مقابل ذلك بحماية العثمانيين العسكرية . اما في العاصمة نفسها وضواحيها حيث كان من الممكن الاستنجاد بالسلطة المركزية ضدّ استبداد الموظفين الصغار وتعنتهم ، في سهولة ويسر ، فقد تمتع النصارى — وكانوا يُقسمون بحسب الجنسية والطائفة الى « ملل » — بالحرية المدنية والدينية الكاملة ، وبخاصة اذا كانوا من اليونان (روم مِلّتي) . والواقع انه كان لبطريرك الروم [في القسطنطينية] من القوة والسلطان ، في ظل العثمانيين ، اكثر مما كان له في عهد بيزنطة نفسها . وكانت مراسيم المعمودية والزواج والدّفن تقام علانية ، وفي فخامة وأبهة في معظم الاحيان . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت السلطات العثمانية نفسها تسعى ، في الاعياد الكبرى ، الى ان تضمن للمصلين جواً من الهدوء وذلك بان تعهد الى حرس من الانكشارية في المرابطة امام ابواب الكنائس .

اليهود والارمن

وإذ كانت الدولة العثمانية لا تتدخل ، من حيث المبدأ ، في قضايا الدين ، فقد انتهت في الواقع الى ان تصبح ملجأ للحرية الدينية بالنسبة الى اليهود المطرودين من اسبانية والبرتغال عند منبلج القرن السادس عشر . فما وافت سنة ١٥٩٠ ، على وجه التقريب ، حتى بلغ سكان الحيّ اليهودي في استانبول نحواً من عشرين الفاً . واتخذ اليهود سبيلهم الى قصر السلطان ، بادىء الأمر ، بوصفهم مضحكين ومشعوذين ، وقد حظوا ، بخاصة ، عند السلطان

سليم الثاني الذي كان شديد الولوع بهذا الضرب من اللهو والعبث ولكنهم عرفوا ، الى ذلك ، كيف يفرضون انفسهم على البلاط بوصفهم اطباء . والواقع أن الطبيب ناثان سلمون أَشْكَنَازي ، الالماني الاصل ، وفق الى ان يسيطر على محمد صوقللي سيطرة بعيدة. وفي عهد سليم الثاني لعب يهودي آخر يدعى يوسف ناسي دوراً مماثلاً لذلك الذي لعبه ميخال قانتاقوزن . وكان يوسف هذا قد هاجر من البرتغال الى القسطنطينية ، سنة ١٥٥٠ ، حاملاً ثروة طائلة . فاتصل بسليم وهو لا يزال ولياً للعهد وحاكماً على كوتاهيه واستغلّ ، في براعة فائقة ، حبه للهو ورغبته في اللذات. حتى اذا رقي سليم عرش السلطنة عهد اليه في التزام جباية الضرائب على الخمر ، بالاضافة الى موارد عشر من جزائر بحر إيجه . ولقد اجيز له ان يلقب نفسه في علاقاته مع الاوروبيين بـ « دوق ناقسوس » ، وكان ينوب منابه في حكم الجزائر الايجية رجل اسباني . واحتفظ ناسي ، حتى بعد وفاة السلطان سليم ، بهذه الموارد ، على اعتبار انها ستؤول عند موته — ولم يكن له ولد — الى خزانة السلطان ، على اية حال . وكان الارمن — الذين قدّر لهم ان يصبحوا ، في العصر الحديث ، أخطر منافسي اليونان واليهود في ميدان الحياة الاقتصادية — لا يزالون يمثلون في ذلك العهد دوراً متواضعاً جداً في استانبول ، على الرغم من انه كان لهم بطريك خاصٌ يتعين عليه ان يؤدي الى الدولة ضريبة سنوية مقدارها الف دوكه . والواقع انهم كانوا يكسبون رزقهم — شأن كثير منهم في القرن التاسع عشر ايضاً — من طريق الخدمة في المنازل،

أو الاعمال التجارية الصغيرة .

الألبانيون والصقالبة

وبينما كان « رعايا » العاصمة يعرفون دائماً كيف يكيّفون أنفسهم وفقاً للاحوال القائمة ، كان « رعايا » الولايات يتطلّعون في لهفة وشوق ، الى اليوم الذي يخلعون فيه نير الحكم الاجنبي. وكان اليونان في شبه الجزيرة البلقانية مستعدين أبداً لتأييد الدول الأوروبية كلما كتب لها النصر في نضالها مع الباب العالي. ولكن الألبانيين [الارنأوط] كانوا كما سبق منا القول ، هم الممثلين الحقيقيين لفكرة التحرّر ، فالحق ان هذه الفكرة ظلت تراودهم حتى في العهود التي تلت إخضاعهم ، والتي عانوا فيها اشدّ الضغط وأثقله . اما الصقالبة (السّلاف) ، والصّرب منهم خاصةً ، فقد احتفظوا بفكرة التحرّر حيّةً في شعرهم القومي الذي مجد ، في الوان متوهجة ، نضالهم ضد الاتراك ، مغنّياً بخاصةٍ مآثر بطلهم المعروف بالملك ماركو كراجوفيك بن ووقاچين (١٣٧١ — ١٣٩٥) .

نشوء الامبراطورية الفارسية الجديدة
والنزاع التركي الفارسي

كانت ايران ، منذ هبّت العاصفة المغولية الكاسحة ، اشبه شيء بالكرة يتنازعها جماعة من امراء القبائل المتنافسين يرجع بعضهم الى اصل تركي ، وينتسب بعضهم الاخر الى المغول . ولقد رأينا في ما سلف كيف وُفّق اوزون حسن التركماني ، رأس قبائل آق قيونلي ، الى التغلب على منافسه جَهان شاه ، رأس قبائل قره قيونلي ، ليبسط سلطانه بعد ذلك ، سنة ١٤٦٩ ، على آذربيجان وارمينية وايران حتى خراسان — حيث كانت السلطة ما تزال بيد التيموريين — وعلى الجزيرة الفراتية ؛ كما تحدثنا عن النزاع الذي نشب بينه وبين العثمانيين ، والذي ايدته فيه مدينة البندقية ، وكيف اضطر بعدُ الى النكوص على عقبيه . حتى اذا قضى نحبه خلفه ابنه خليل ، في كانون الثاني سنة ١٤٧٨ . ولكن اخاه يعقوب ، ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة ، ما لبث ان هزمه في تموز من السنة نفسها ليستولي على ممتلكات ابيه ، بعد مصرع خليل في ميدان القتال .

وفي عهده ظهرت دولة أَرْدَبيل الصوفية التي سبقت الاشارة اليها ، والتي قُيض لها ان تصبح ، بعد ، نواة لدولة ايرانية راسخة الاصول ، قوية الدعائم . ولقد رأينا في ما سلف من فصول ، كيف تم الاتحاد ، غير مرة ، بين الحياة الروحية وأغراض السياسة الحربية ، وكيف كان هذا الاتحاد يتجه اول الامر الى حرب الكفار ، حتى اذا انقضت فترة من الزمان اتجه الى محاربة اهل البدع (الزنادقة) من المسلمين انفسهم ، شأن دولة المرابطين في شمالي افريقية مثلاً . وحوالى سنة ١٣٣٤ توفي في اردبيل الشيخ اسحق صفي الدين — وكان صوفياً ينتسب الى رجل من العلويين هاجر في ما يظهر من بلاد العرب الجنوبية ؛ وانما تقع اردبيل هذه في آذربيجان الشرقية ، على مسيرة [٣٥ ميلًا] من الساحل الجنوبي الغربي من بحر الخزر (قزوين) ، وكان قد تزوج من ابنة شيخه زاهد الجيلاني — وجيلان مقاطعة تقع على الساحل الجنوبي من بحر قزوين — وحظي بمقام كبير عند رشيد الدين وزير الايلخان في فارس . وقنع الشيخ اسحق ، شأن أعقابه حتى الجيل الثالث ، بالشهرة التي تمت له كولي من الاولياء ، فلم يسع بسبيل الحصول على أيما سلطة سياسية . والواقع ان حفيده ، خوجا علي ، بلغ من ذيوع الصيت مبلغاً حدا بتيمورلنك ، بعد انتصاره على بايزيد ، الى ان يجعل اردبيل وضواحيها وقفاً عليه وعلى اعقابه . وهكذا انتهت ملكية هذا الوقف الى ان تكون ارثاً يؤول الى اعقاب الشيخ المؤسس ، كمشيخة الطريقة سواء بسواء . بيد ان

هذا الارث لم يكن من حق الارشد ، بل من حق من يختـــاره الشيخ من اولاده . وكان يمثل الشيخ ، لدى اتباعه المقيمين خارج اردبيل ، « خليفـــة » ينوب منابه ، شأنه في ذلك شأن مشايخ الطرق الاخرى جميعاً .

الشيخ جنيد وابنه حيدر

وما هي الا فترة حتى لفت المتعصبون من اتباع هذه الطريقة ، وكانوا يعتنقون العقيدة الشيعية في حماسة تتزايد مع الايام ، أنظار الحكام المدنيين المجاورين . وكان الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفي الدين قد زُج في السجن ، في يوم ما من ايام سنة ١٣٦٠ ، بامر من حاكم آذربيجان المغولي في ذلك الحين . وفي سنة ١٤٤٧ نشب النزاع بين الشيخ جُنَيْد – وكان لا يزال دون سن الرشد – وبين عمه جعفر الوصيّ عليه ، فحرّض هذا الأخير حَمَا ابنِه * جهان شاه خان القره قيونلي ، على إبعاد جُنيد من البلاد ، ففعل . وهكذا اضطر جنيد الى ان يحيا فترة من الزمان ، في آسية الصغرى ، حياة المغامرة والتوحّل من مكان الى مكان ، حتى وجد ، آخر الأمر ، مُعتَصَماً في جبل أرْسُوس على خليج الأسكندرونة ، حيث جمع أتباعه في قلعة قديمة من قلاع الصليبيين . ولكن مؤامراته الشيعية أوقعت الشك في نفس جَقمَق ، سلطان المماليك ، فرغب في اعتقاله ؛ فلم يكن منه إلا أن فرّ الى جانِيْق ، على البحر الاسود . وهناك وُفّق جُنيد الى أن يجمع حوله عدداً كبيراً من الاتباع ، ايضاً . ثم إنه اعلن الجهاد ضدّ مملكة طرابْزُون ، ولكن السلطان محمد

* اي : ابا زوجة ابنه .

الثاني العثماني حرمه ثمرة نصره بان الحق طرابزون بامبراطوريته .
ومهما يكن من شيء ، فقد لقي جُنيد حفاوة بالغة في حمى اوزون حسن ، خصم السلطان العثماني ، بديار بكر . والواقع أنه استطاع ان ينشر طريقته في البلاد الواقعة في حوزة اوزون من غير ان يلقى معارضةً ما . حتى اذا وافت سنة ١٤٥٩ انقلب الى وطنه بعد ان تزوج من ابنة اوزون حسن . ولكي يتلافى النفي مرة اخرى على يد خان القره قيونلي ، اعلن الجهاد ضدّ الجراكسة . ثم انه تقدم في أراضي شِرْوَان شاه فتصدى له هذا الأخير ؛ وفي ٤ آذار سنة ١٤٦٠ سقط قتيلاً في معركة دارت رحاها بوادي قَرَهْ صُو (الفرات الغربي) .

وفي آمِد وضعت زوج جنيد ، بعد انقضاء شهر على وفاته ، غلاماً اسمه حيدر . ونشأ حيدر في كنف اوزون حسن ورعايته ، حتى اذا كانت سنة ١٤٧٠ أعاده الى أردبيل ليخلف أباه في حكمها. ولما بلغ سنّ الرشد ، وانتهت وصاية عمه جعفر عليه ، زوّجه اوزون حسن كبرى بناته من دَسْبِينَه خاتون ، أميرة طرابزون . فرُزق في ١٧ تموز سنة ١٤٨٧ ثاني أولاده ، اسماعيل ، الذي قُيض له أن ينشىء في ما بعد السلالة الصَفَوِيّة . والواقع ان حيدر — وكان قد اصبح ، على الجملة ، مستقلاً في أموره بعد وفاة جدّه — اعاد تنظيم طريقته على اسس جديدة رامزاً الى ذلك ، جرياً على العادة في الشرق ، باستحداث لباس للرأس ، جديد ، هو « تاج حيدر » الاحمر ذو الاثنتي عشرة ذؤابة ، كناية عن الاثني عشر إماماً . ومن هنا دعا العثمانيون مصطنعي لباس الرأس هذا الجديد « قِزِلْباش » اي

« الرؤوس الحمراء » . وكان اتباع حيدر ينتسبون الى مختلف القبائل التركية ، ولقد احتلّ ابناء أسرى الحرب الاناضوليين الذين كان قد تركهم تيمورلنك [عبيداً] لخوجا عـلي مركزاً ممتازاً بينهم . وفي سنة ١٤٨٣ افتتح حيدر حملاته الحربية بغزوة نـاجحة ضدّ الجراكسة أجاز له شِروان شاه اثناءهـا عبور الاراضي الواقعة في حوزته . ولكن حيدر كان يطلب عند هذا الأخير ثأر أبيه . فلما وافت سنة ١٤٨٨ أخذ شروان شاه على غرّة، بعد ان تظاهر بالرغبة في شنّ حملة جديدة على الجراكسة ، وحاصره في قلعة گُلِسْتان . بيد ان الامراء التابعين لشروان شاه ما لبثوا ان وجهوا اليه النجدات فاضطر حيدر الى الانسحاب ، ونجـا شروان شاه بنفسه . ومهما يكن من شيء فقد تعيّن على شروان شاه ان يفر في الحال الى قلعة اخرى بعد أن هزم حيدر جيوشه من جديد . وفي هذه الاثناء وجّه السلطان يعقوب التركماني ، ابن عم حيدر ، جيشاً لمقاتلة نسيبه هذا بينما كان ملقياً الحصار على قلعة دَرْبَنْد (باب الابواب) . وفي ٩ تموز سنة ١٤٨٨ دارت بين القِزِل باش والتركمان ، عند سفح جبل ألْبُرْز رحى معركة سقط فيها حيدر قتيلاً . وحمل يعقوب اولاد نسيبه القتيل، ومعهم أمهم، من أردبيل إلى إصْطخْر في مقاطعة فارس .

وتوفي يعقوب في نهاية عام ١٤٩٠، فنشبت الحروب بين ابنائه المتنازعين على خلافته . وفي غمرة من هذا الصراع أُطلق اولاد حيدر من السجن ليدعوا أتباعهم الى نصرة رستم ، حفيد دسيسه، على بايسُنْقُر بن يعقوب . وفي سنة ١٤٩٣ وُفّق السلطان عليّ ،

أكبر اولاد حيدر ، وجنوده القزل باش ، الى ان ينزل الهزيمة بجند بايسنقر . ثم تابع تقدّمه ، ليتولى زعامة الدولة الصوفية في اردبيل . ولم يكد يبلغ قريةً قريبةً من موطنه حتى تصدّى له رُستم . وفيما كانت رحى المعركة دائرة ، سقط عليّ في النهر فغرق.

أما اسماعيل وابراهيم ، اخوا السلطان عليّ ، فقد حجبهما اتباعهما في أردبيل عن اعين المكلفين بتعقّبهما . ثم ان اسماعيل حُمل الى مأمن في جِيلان ، وكان حاكمها على صلات حسنة بأسرته ، رغم تبعيته للآق قيونـلي . وهناك عاش متخفياً الى ان فقد رستم عرشه وحياته سنة ١٤٩٧ ، على يد ابن عمه أحمد [٢١] .

اسماعيل يخضع بلاد الفرس

كان اسماعيل في الثالثة عشرة عندما خرج مطالباً بأرث أبيه ، وليس معه ، كما تزعم الروايات ، غير سبعة نفرٍ من اتباعه. ولكن سلطان التركمان ، علي بك چاقـرْلي ، ما لبث ان اخرجه من أردبيل فانكفأ الى آسْتَارَه على بحر قزوين . وهناك جمع حوله ، من بلاد الاناضول وسورية بخاصة ، عصبة من الاتراك تكاثر أفرادها مع الأيام تكاثراً كبيراً ؛ فما وافى ربيع سنة ١٥٠٠ حتى آنس من نفسه القدرة على اعلان الجهاد ضد النصارى في بلاد الكرج (جورجيا) . والواقع انـه اتخذ من ذلك ذريعةً الى الانتقام لأبيه من شروان شاه . وفي معركة دارت رحاها عنـد گُلستان قُتل فرّخْشاه ، فانتهت بموته سلالته التي كانت تعتبر

(٢١) انظر هنز W. Hinz, *Irans Aufstieg zum Nationalstaat im 15. Jahrhundert*, Berlin and Leipzig, 1936.

نفسها متحدرةً من كسرى انو شروان السّاساني . ثم ان اسماعيل احتلّ باكو ، لينقلب بعدُ لقتال ألْوَنْد ، خان الآق قيونلي في آذربيجان . والواقع ان انتصاره على ألوَنْد هذا مهد امامه السبيل الى تَبرِيز حيث توّج ملكاً (شاه) على بلاد فارس . ومع ان علماء الشيعة التبريزيين اعلموه بان ثلثي سكان المدينة على الأقل ، وكانت تضم ثلاثمائة الف ، من اهل السنّة ، فقد سارع الى جعـل التشيع مذهب الدولة الرسمي ، ثم اردف ذلك بأكراه رعاياه جميعاً على سبّ ابي بكر وعمر وعثمان .

وبعد ان انزل هزيمة جديدة بجند ألْوَنْد انقلب لقتال مراد ، أخي ألْوَند ، فوُفق الى ان ينتزعَ منه ، سنة ١٥٠٣ ، السلطة على شيراز ، ويبسط سلطانه حتى أستَرَاباد و « يَزْد » . ثم انه فتح الجزيرة الفراتية والعراق ، في سهولة ويسر ، وهكذا انتهت اليه السيادة على المدينتين الشيعيتين المقدستين : النجف وكربلاء . وكانت قد ظهرت في ذلك العهد ، في بلدة الحُوَيْزَة ، فرقة شيعية غالية ألّهت علياً وادّعى زعماؤها الالوهيـة لانفسهم . فناصب هؤلاء الزنادقةَ العداء ، وكان قاسياً عليهم كمثـل قسوته على اهل السنة .

اخضاع الاوزبك في خراسان

فلما تمّ لاسماعيل إخضاع بلاد الفرس كلها بهذه الطريقة ، لم يبق امامه من عـدوّ غير العثمانيين في الغرب والاوزبك في الشرق . ولقد سبق منا الكلام على النزاع بينه وبين سليم الاول . أما قبيلة الاوزبك التركية فكانت قـد استولت على الامر في

تركستان بزعامة الخان [محمد] شَيْباني ، الذي تمرّس بفن القتال في الحروب التي نشبت بين امراء المغول في تلك البلاد . وفي سنة ١٤٩٤ قضت هذه القبيلة على بقايا التيموريين في خراسان وهراة ، لتصبح بذلك متاخمة للدولة الفارسية . ولسنا نستطيع ان نقرر ، في يقين ، ما اذا كان شيباني – وهو من انصار السنّة الراسخين – قد استفز اسماعيل بدعوته الى الرجوع الى احضان السنّة ، ام لا . ولكن الذي يبدو ثابتاً محققاً انهما تبادلا ، وفقاً لما جرت به العادة في ذلك العصر ، رسائلَ في هذا الموضوع كانت لهجتها تزداد شدة وقسوة ، مع الايام . اما السبب المباشر الذي ادّى الى نشوب الحرب بينهما فكان غزوَ الاوزبك لمقاطعة كِرْمان الفارسية . وفي سنة ١٥١٠ جرّد اسماعيل ، ابتغاءَ الانتقام ، حملة على الشرق أتاحت له في الوقت نفسه زيارة ثاني الاماكن المقدسة الكبرى عند الشيعة ، اعني ضريح الامام عليّ الرضا في مدينة مَشْهَد . فلما كان اليوم الاول ، او اليوم الثاني ، من شهر كانون الاول التقى جمعاهما عند طاهر آباد قرب مَرْو فدارت الدائرة على شيباني وسقط صريعاً . ومن الجدير بالذكر ان اسماعيل بعث بجثته محنطةً الى السلطان بايزيد في حين وضع جمجمته في غشاء من الذهب ليتخذ منها كأساً للشراب . ولكنّ هذه الهزيمة لم تقض على قوّة الاوزبك ، فتقطعت مدةً طويلة وهم يتهددون حدود ايران الشرقية تهدداً متواصلاً . وبعد اندحار اسماعيل في معركة چالْدِران [امام السلطان سليم] عقد مع العثمانيين صلحاً ، ولم يجرؤ على [الحرب مرة اخرى] والقيام بحملة جديدة ضد نصارى مملكة

الكُرْج الا بعد وفاة السلطان سليم . ثم ان اسماعيل توفي بعد ذلك بقليل - وكان يزور اردبيل - في ٢٣ نوار سنة ١٥٢٤ ، وليس له من العمر غير ثمانٍ وثلاثين .

الحياة الفكرية عهد اسماعيل

قلنا سابقاً ان تأسيس الامبراطورية الصَّفَوَيَّة يُعتبر بمثابة ارتقاء ايران الى مستوى الدولة القومية . ولكنَّ من غير اليسير حقاً أن نخلع الصفة القومية على سلالة من سلالات ايران المالكة كان يجري في عروقها ، الى جانب الدم العربي ، الدمُ التركي ، والدم اليوناني ، وكانت تعتمد في العاصمة على الجنود التركية ؛ هذا بصرف النظر عن أن فكرة القومية كانت غريبة بالكلية عن البيئة التي نشأت فيها هذه الدولة. والواقع ان العلماء الذين ساعدوا اسماعيل على النهوض بالشيعة الى مقام القوَّة في ايران تحدَّروا في الأعم الأغلب من اصول اجنبية ، ولم يكن في استطاعتهم ان يرتاحوا الى انهم يمثلون الامة الايرانية ،لا سيما وقد اصطنعوا العربية لغةً للتأليف . ولم يكن عهد اسماعيل ، الحافل بالنضال والكفاح ، افضل ما يكون لازدهار الأنتاج الأدبي ، فوجد شعراء عصره القلائل من الرعاية والحظوة في قصور التركمان والتيموريين الصغرى ما لم يجدوه في بلاطه هو . والحق ان واحداً من اشهر هؤلاء ، هِلالي الاسترابادي ، كان تركي الأصل ، وكان مديناً بمكانته الفنيَّة للرعاية التي أحاطه بها نَوَائي ، الشاعر التركي الشرقي الكبير . ونحن في شك من أن رعايا اسماعيل الفرس اعتبروا حكمه سناداً لعزتهم القومية ، هذا اذا سمحت لهم الاضطرابات

الدينية بأن يتحسسوا مثل هذه العزّة اصلاً .

طهماسب بن اسماعيل

وخلف طَهْماسْب أباه اسماعيل وهو في العاشرة، واستطالت مدته حتى لقد استغرقت اثنين وخمسين عاماً ونصف حفلت بالحروب المتصلة ضد اعدائه : الاوزبك في الشرق ، والعثمانيين في الغرب . والواقع ان عُبيد خان بن شيباني خان شنّ ما لا يقلّ عن سبع حملات ، على بلاد الفرس ، ابتداء من سنة ١٥٢٥ حتى وفاته سنة ١٥٤٠ . وكان من نصيب هراة ان تعاني اكثر من ايما مدينة أخرى ، باستثناء « مَشْهَد » المقدّسة ، غارات اهل السنة المتعصبين الذين اضطهدوا الشيعة اضطهاداً متواصلاً عنيفاً . ولقد تكلمنا آنفاً على الحملات التي شنها العثمانيون على فارس . فنضيف هنا أن طهماسب كان يفيد من فترات السلم المعترضة ما بين حروبه ضدّ أهل السنة فيغزو نصارى الكرج . والحق ان عدة غزواته ضد هؤلاء بلغت سبعاً ، ولكنه لم يوفق فيها الى انتصارات دائمة ، على الرغم من انّ كثيراً من الكرج دخلوا في خدمته في ما بعد . وليس من شك في ان عهد طهماسب هذا ، الذي سعى الى المجد من طريق الاتّباع الدقيق، الى اقصى الحدود، لجميع التعاليم الشيعية، مهما تكن ثانوية ، والذي حبس نفسه طوال السنوات الاخيرة من حكمه حبساً يكاد يكون كلياً في قصره ، اقول ليس من شك في ان هذا العهد الطويل لم يكن ، بالضبط ، نعمة على البلاد الفارسية ، لا سيا وأن عصابات اللصوص كانت تعكر صفو السلامة العامة تعكيراً متواصلاً بسببٍ من الاضطرابات الحربية المستمرة .

ولقد روى لنا « ڤنسنتو دي أليساندري » ، سفير البندقية في بلاط الشاه ، كيف عزم هذا الأخير ، مرّة ، على ان يخفف من وطأة الضرائب التي تثقل كواهل رعاياه ، لأنه رأى في ما يرى النائم ملاكاً يتوعده من اجلها . والذي يؤخذ من السيرة التي ترجم فيها لنفسه ان الاحلام قد لعبت ، على العموم ، دوراً هاماً في حياته . فقد أقلع عن معاقرة الخمرة وهو في العشرين من عمره ، وأمر باغلاق جميع حوانيتها في البلاد اثر رؤيا قرّعه فيها الأمام عليّ الرضا .

وتوفي طهماسب في ١٤ نوار سنة ١٥٧٦ من غير ان يسمي خليفةً . وكان ابنه البكر محمد خُدَابَنْدَه الذي اقام في هراة من سنة ١٥٣٦ الى سنة ١٥٥٦ بوصفه حاكماً عليها ، والذي اضطرّ الى ان يتخلى عن مركزه هذا ويستعيض عنه بحكم شيراز بسبب من نزاع نشب بينه وبين احد الموظفين الكبار — أقول كان ابنه البكر هذا قد فقد البصر ، او كاد ، منذ وقت طويل ، فأقصي عن خلافة ابيه جرياً على العادة الغالبة في بلاد الشرق . اما ابنه الثاني ، اسماعيل ، الذي كان ، على نقيض والده واخيه ، مفعماً بالعزيمة العسكرية محبباً بالتالي الى نفوس القزل باش ، فقد سبق أن لمع نجمه في الحروب التي خاضها قومه ضد العثمانيين ، وفي العمل الجريء الناجح الذي قام به ضد حاكم أرْضَرُوم اسكندر باشا ، سنة ١٥٥٢ ، بخاصة ؛ حتى إذا عُهِد اليه سنة ١٥٥٦ في الولاية على خراسان ، خلفاً لاخيه الاكبر ، استثار شكوك ابيه بما اظهره من استقلال في العمل العسكري وتفرّد في رسم الخطة له ؛ فأمر بحبسه ، سنة ١٥٥٧ ، في قلعة

قَهْقَهَه في جبل سَوَلان بين أردبيل وتبريز . وكان للشاه سبعة اولاد آخرين ، احبهم اليه ابنه حيدر ؛ وكان قد امر سفيره لدى الباب العالي بان يقنع الدولة العثمانية بألا تعارض في ارتقاء حيدر العرش . وانما ايده فريق الكرج في البلاط ، وقبيلة أُسْتاجْلُو من بين القزل باش ؛ وحظي فوق ذلك بتأييد رعاياه الفرس من غير شك . ولكنّ انصار اسماعيل وفقوا ، بقيادة اخته لأمه ، بيري خان خانم الى ان يستولوا على القصر ، في العاصمة ، قزوين ، ويفتكوا بحيدر ، قبل ان ينجو اسماعيل من محبسه بقلعة قهقهه .

اسماعيل الثاني

وفي ٢٣ نوار سار اسماعيل الى العاصمة ، بعد ان حرّره جلاده لدن تسامعَ بمصرع حيدر ، فدخلها في ١٣ حزيران ، ليرتقي آخر الامر عرشَ آبائه في ٢٢ آب . والواقع ان الشاه الجديد ، وكان قد خُولط في عقله من جرّاء مُقامه الطويل في السجن ، لم يلبث ان جعل وكده تدعيم سلطانه والتمكين له مُفرغاً في سبيل ذلك كل ما يملك من جهد وقوة . ولم تمض فترة وجيزة حتى كان قد قتل جميع اخوته ، ما عدا محمد خدابنده ، وجميع أولاده باستثناء اكبرهم ، حسين ، الذي قُتل مع من قتل . اما عباس ، اخو حسين هذا ، الذي ارتقى العرش بعد ، فلم ينجُ الا باعجوبة . ثم ان الشاه الجديد أحفظ القِزِل باش ، وهم دعامة بيته ، بما اظهره من كراهية علنية للمذهب الشيعي ؛ فقد اغفل ذكر شعارهم على ما ضرب من نقود ، وحظّر سبّ الخلفاء الثلاثة الأولين من على المنابر . والحق ان شخصيته الغامضة التي افسدتها المسكرات ، تجعل

من العسير علينا ان نعيّن على التحديد ما الذي دفعه الى انتهاج هذه السبيل : اهو الامل في ان يسترضي بذلك اهل السنة ، اعداء دولته التقليديين ، ام هو مجرّد الرغبة في الانتقام من ذكرى والده الذي افسد عليه حياته اذ زجه طوال سنيه تقريباً في غياهب السجن . وبعد مدة وجيزة من مولد ابنه البكر ، قضى اسماعيل نحبه ، مسموماً على الارجح ، في منزل غلام كان يتعشقه ، (٢٤ تشرين الثاني سنة ١٥٧٧) . وكانت أخته لأمه طموحاً ، وقد سبق لها ان فكرت بان تتولى الوصاية الامبراطورية باسم ابنه الصغير . ولكنّ شيوخ القزلباش رفعوا محمد خدابنده ، وكان كما رأينا نصف اعمى ، الى العرش [٢٢] . ولكن الدولة كانت قد اخذت في الضعف ، يدلك على ذلك ان شيخاً من مشايخ الطريقة القَلَنْدَرِية ما لبث ان ظهر في مقاطعة لُورِسْتان الكردية مدّعياً انه الشاه القتيل ، فعمّرت سلطته هناك حتى سنة ١٥٨٢ .

وسارع محمد خدابنده ، عقب توليه العرش ، الى التخلص من اخته لأمه ، پيري خان خانم ، ومن ابن اسماعيل القاصر . والواقع ان زوجته — وكانت ابنة سيد مَرْعَشيّ من مازَنْدَران — هي التي تولت شؤون الدولة بالنيابة عنه الى ان قتلها احد زعماء القزلباش . واذ كان اعداء الدولة يستغلون ، من كل جانب ، ما انتهت اليه من ضعف ، فقد عزم عباس — ثاني اولاد الشاه ، وكان حتى ذلك الحين حاكماً لخراسان — على التدخل في شؤون الحكومة

---

(٢٢) انظر هنز W. Hinz, *Schah Esmail II, Mitteilungen des Seminars für orient. Sprachen*, 1933, 2, 9-99.

المركزية في العاصمة ، بعد مصرع اخيه الاكبر . فلما وافى تشرين الاول من سنة ١٥٨٧ اكره أباه على التنازل عن العرش ، وسمل عيون اخويه الاصغرين وحبسهما في ألَـمُوت .

عصر الزهو في فارس

والحق ان السنوات الثلاث والاربعين التي استغرقها عهد عباس « الكبير » (١٥٨٨ — ١٦٢٩) [٢٣] انتهت بايران الى ذروة قوتها . فلم يكد الشاه يرتقي العرش ، وليس له من العمر غير سبع عشرة سنة ، حتى سعى الى ان يضمن لنفسه حرية العمل ، فأصدر امره بقتل مرشد قولي خان الذي سبق ان تعهده بالعناية ، اثناء ولايته على خراسان ، والذي ساعده على ارتقاء العرش . ثم ان عباساً القى نظرة حكيمة على مملكته فألفاها في وضع خطر . فما كان منه الا ان سارع الى عقد صلح ذليل مع العثمانيين الذين ما انفكوا منذ وفاة اسماعيل الثاني ، يهاجمون فارس مرة بعد مرة . وبمقتضى هذا الصلح تنازل عبـــاس للعثمانيين عن آذربيجان ، والكُرْج (جورجيا) ، وجزء من لورستان ، وكانوا قد احتلوا هذه الولايات كلها ، وتعهّد بالكفّ عن سبّ الخلفاء الثلاثة الأولين في اراضي مملكته ، وبأن يبعث بابن عمه حيدر ميرزا رهينة الى استانبول . ومن ذلك الحين فرغَ عباس لاقرار الأمن في داخـــل مملكته ووقايتها من عدوان الاوزبك الذين غزوا خراسان غير مرة ، حتى اذا كانت سنة ١٥٩٨ توفي زعيمهم الخان عبد المؤمن ، فصار

---

(٢٣) انظر بلان A.Bellan, *Chah Abbas, Les grandes figures de l'Orient*, III, Paris, 1933.

في ميسور عباس ان يطردهم من البلاد . وما هي الا فترة وجيزة حتى ظهر في بلاطه مغامران انكليزيان ـ السير انطوني والسير روبرت شيرلي [٢٤] ـ مكنّناه ، آخر الامر ، بمساعدة صانع مختص بصناعة المدافع كان يصحبهما ، من ان يسلح الجيش الفارسي بسلاح المدفعية الذي كان يُعوزه من قبل والذي كان الفرس عاجزين ، بسببٍ من فقدانه ، عن مضاهاة الاتراك في الميدان . ولكي يتحرّر من سلطة القزل باش الذين أعنتوا أسلافه وازعجوهم اعظم الازعاج ، أنشأ على غرار الانكشارية جيشاً من الكرْج والارمن الداخلين حديثاً في الاسلام ، وحرساً تركياً جديداً ، سمي « شاه سَوَن » . وفي اواخر عهد السلطان محمد الثالث ، وكانت الامبراطورية العثمانية منهمكة في حرب مستمرة مع النمسا ، وفي اخماد الثورة التي قامت بها الطريقة الجلالية في آسية الصغرى ، أعلن عباس الحرب على العثمانيين ، سنة ١٦٠٢ ، فتمكن بجيشه الجديد من استرداد تبريز ، بل تمكن من استرداد شِرْوان وبغداد ايضاً ؛ وان تكن هذه الاخيرة (بغداد) قد سقطت بعدُ ، عدة مرات ، في ايدي العثمانيين ، على عهد عباس نفسه . كذلك مكن للسلطة الفارسية في بلاد القبق (القوقاز) ايضاً ، وعزّز الحدود في الشرق حتى مرو وبلخ . وفي آذار سنة ١٦٢٢ انتزع ، بمساعدة بعض السفن الحربية الانكليزية ، جزيرة هُرْمُز في الخليج الفارسي من ايدي البورتغاليين وانشأ قاعدة

(٢٤) انظر D. E. Ross, *Sir Anthony Sherley and His Persian Adventure*. S. C. Chew, *The Crescent and the Rose*, Oxford, 1937.

تجـارية جديـدة في ثغر كُمْرُون خلع عليها اسم بَنْدَر عباس .

ونقل عباس عاصمته الى إصفهان ، بعد ان تحمّلت العاصمة القديمة ، قزوين ، من الارزاء ما سلبها بهجتها ورونقها . وهناك على ضفاف نهر آراس أنزل أرمن جُلْفَه (جولاهه) الذين خلعوا اسم موطنهم القديم على الضاحية التي استقروا فيها [بالقرب من إصفهان] . وزين عباس اصفهان نفسها بالمباني الفخمة ، من مثل الجامع الكبير وقصر الأعمدة الاربعين (چهل ستون) والجسر الكبير القائم على نهر زَنْدَرُود وبالبساتين الاربعة (چار باغ) . وكما سبقَ له في معاهدة الصلح مع العثمانيين ان خفف من غلواء المعتقدات الشيعية فقد قاده تسامحه الآن الى حدّ الترخيص للآباء الكرمليين بالاقامة في إصفهان . وفي عهده الطويل ازدهرت الحياة الفكرية ، في فارس ، من جديد . وكان محمد باقر بن محمد داماد اشهر الشموس اللامعة في البلاط ، فاحترمه الشاه نفسه وكرّمه . والحق أنه عني بالفلسفة والعلوم الطبيعية فضلاً عن الفقه فأجرى بنفسه بعض التجارب العملية في النحل . ولمع في بلاط عباس ايضاً بهاء الدين العاملي ، وكان عالماً متعدّد جوانب الثقافة ، راغباً في ان يحيط بجميع العلوم المعروفة لعهده . اما الفيلسوف الكبير صدر لدين الشيرازي الذي لا تزال فلسفته الالهية ذات اثر واضح حتى يومنا هذا بوصفها عنصراً في تكوين عقيدة «الباب» [او الدين البهائي] الجديد ، فقد آثر حياة التأمل في مدينة قُمّ المقدسة . كذلك ازدهر الشعر والموسيقى في ظلّ عباس ايضاً .

بيد أن هذا العاهل الذي فاق اسلافه وسما عليهم سمواً كبيراً لم يتورع عن قتل ولده البكر صَفيّ ميرزا ، بعد ان اوجس خيفةً منه بسببٍ من الشعبية التي تمت له بين الناس . حتى اذا توفي ربيعَ سنة ١٦٢٩ ، في مقره الصيفي في فَرَح آباد من اعمال مازندران خلفه حفيده سامْ ميرزا الذي تسمى باسم أبيه ، صفيّ ، عند ارتقائه العرش .

والواقع ان عهد سامْ ميرزا هذا كان من اتعس العهود التي عرفتها الامة الفارسية في تاريخها الحافل بالارزاء والآلام . ذلك بانه سعى ، بوصفه طاغيةً عاجزاً ، الى ان يمكّن لسلطته في الداخل من طريق الاعمال الوحشية المتكررة . أما في الخارج فقد وفق الى صد غارات التركمان في خراسان ، ولكنه أضاع قَنْدَهَار ــ التي فُتحت في عهد طهماسب واستردّت في عهد عباس ، والتي تقع اليوم في افغانستان ــ ليستولي عليها شاه جهان صاحب دلهي ، كما اضاع بغداد ليستولي عليها العثمانيون .

ولكن فارس ما لبثت ان عرفت ، عهدَ عباس الثاني ، الذي خلف أباه سنة ١٦٤٢ وهو في سن العاشرة ، فترةً اخرى قصيرةً من الازدهار وحسن الطالع . فقد استردّ قندهار ، وكان عليه في ما عدا ذلك أن يخمد ثورة قام بها الكرج بقيادة طَهْمُورَث خان سنة ١٦٥٩ . والواقع انه اصطنع العدل في معاملة رعاياه جميعاً بصرف النظر عن معتقداتهم ، حتى لقد تمتع النصارى ايضاً بالحرية الدينية الكاملة في عهده . وعلى الرغم من انه حاول ان يحظر

شرب الخمرة ، نزولا عند الحاح رجال الدين ، فقد تردّى هو نفسه ، بعدُ ، في مهاوي الادمان الذي ذهب بنضرته وعجّل وفاته .

وواصل صفيّ – الذي تسمى بسليمان عند ارتقائه العرش سنة ١٦٦٧ – سياسة التسامح التي وضعها أبوه ولكنه كان كأبيه مدمناً على الخمر ، وكان في ساعات سكره كثيراً ما ينزلق الى اعمال همجية يصب جامها على افراد حاشيته . أما ابنه السلطان حسين ، الذي خلفه سنة ١٦٩٤ فكان منحطاً ضعيفاً . ولقد وكل شؤون الدولة كلها الى رجال الدين من الشيعة فأساؤوا اصطناع السلطة وأمعنوا في التنكيل في مواطنيهم من اهل السنة . وكان الملاّ محمد باقر مَجْلِسي أشد رجال الدين هؤلاء على الصوفية ، فاضطهدهم بشدّة عمياء . وسنرى بعد كيف ادى ذلك الى سقوط السلالة الحاكمة ، وانتقال السلطة الى الافغانيين .

الدولة العثمانية في دور الانحطاط
حتى نهاية القرن الثامن عشر

٥

هزيمة الاتراك البحرية في لبانتي

كان سليم الثاني حاكماً على مغنيسيه عندما فوجيء بموت ابيه امام ابواب سِگتوار ، اثناء الحملة المجرية سنة ١٥٦٦، فلم يكن منه إلا ان هرع الى بلغراد حيث انتظر عودة الصدر الاعظم ، محمد صوقللي ، آتياً بجثمان ابيه . والحق انه لم يستطع دخول استانبول إلا بعد ان وهب الانكشارية اعطيات ضخمة جداً . ثم انه واصل الاعتماد على الصدر الاعظم في تصريف شؤون الدولة ، فعقد هذا معاهدة صلح مع النمسا ، في شباط سنة ١٥٦٨ ، على ان يدفع هو جزية سنوية مقدارها ثلاثون الف دوكه ، وعلى ان تعترف الدولتان المتنازعتان بالوضع الاقليمي الراهن لكل منهما . وعلى الرغم من قلة كلفه بالامور العسكرية والحربية فقد وفق اليهودي يوسف ناسي — وكان اثيراً لديه — الى إقناعه بان يخوض ، وشيكاً ، حرباً جديدة ضد البندقية . ذلك ان جزيرة قبرس الغنية ، وكانت في حوزة البنادقة ، استثارت جشع هذا اليهودي فأغرى السلطان

بأعلان الحرب على الجمهورية عندما امتنعت عن تنفيذ ما طلبه اليها سنة ١٥٧٠ ، من التنازل عن الجزيرة . والواقع ان الجيوش العثمانية استطاعت الاستيلاء عليها من غير ان تلقى مقاومة ذات بال . وكان الاسطول البندقي يرابط ، في تلك الاثناء ، على شواطيء إقريطش (كريت) في انتظار النجدة تأتيه من الغرب . ولكن الجمهورية لم تستطع اقناع فيليب الثاني ملك اسبانية والبابا بولس الخامس بضرورة مدّ يد المساعدة الا في نوار سنة ١٥٧١ ؛ حتى اذا وافى شهر ايلول اجتمعت الاساطيل المتحالفة في مرفأ مسّينا. ثم ان الرأي انعقد على ان تتعقب الاساطيل المتحالفة ، بقيادة دون جوان ملك النمسا ، الاسطول العثماني ، وكان مرابطاً في خليج ليانتي ، ناوپاقتوس القديمة ، عند فم خليج كورنثوس . والواقع أنه كان قد عاد حديثاً من قبرس بعد ان سطا على مدن السواحل في اقريطش وعلى الجزر الايونية وبعد ان كان قد عُزز باربعين سفينة حربية معقود لواؤها لباشا الجزائر . وعزم القپودان باشا على ان يغادر مرفأ ليانتي المأمون ليتقدم في اثر الاسطول النصراني ، وكان قد دخل الخليج في ٧ تشرين الاول ؛ وانما أقدم القپودان باشا على ذلك بالرغم من نصيحة مرؤوسيه الذين نبهوه لما يعانيه الملاحون من ضعف ، بسببٍ من حوادث الفرار المتعددة. وهكذا استطاع الاسطول الحليف المتفوق ان ينزل بالاسطول العثماني هزيمة قاصمة ؛ ولم يوفق الى النجاة غير باشا الجزائر وحده ، مستنقذاً الجناح الايسر وسفنه الاربعين . ولكن دون جوان لم يستغل انتصاره . بل انه لم يهاجم ليانتي نفسها ، على الرغم من ان

السكان النصارى ، في الداخل ، كانوا يترقبون ذلك للانقضاض على العثمانيين . واخيراً انسحب الاحلاف، حتى اذا كانت السنة التالية صار في مقدور السلطان ان يوجه الى المعركة اسطولاً يكاد يضاهي اسطولهم منعة وقوة . وهكذا ُفتّ في عضد البنادقة ، الذين ظلوا مرابطين في دلماسيا دون ان يحسنوا مركزهم او يعززوا قواهم ، وزايلتهم الرغبة في مواصلة النضال فعقدوا مع الدولة صلحاً تنازلوا بموجبه عن قبرص ، في آذار سنة ١٥٧٣ . وما هي الا سنة واحدة حتى انحطت صحة السلطان ، بسبب من افراطه الشهواني وادمانه الخمرَ ، ومات اثر نوبة اصابته في ١٢ كانون الأول من السنة نفسها .

الحروب ضد فارس والنمسا عهد مراد الثالث

وورِث مراد الثالث ، ابن سليم الثاني البكر ، العرشَ غيرَ مُدافَع . واذ ُعرف وهو لا يزال صغيراً بالرصانة والجد ، فقد كان من المتوقع له ان يترسم خطى جدّه . بيد انه انغمس ، بأكثر من انغماس ابيه نفسه ، في ملذات « الحريم » تاركاً لأمه نور بانو ولزوجته الرئيسية صفيّة وهي من اسرة بَفَّا الايطالية ، ان تفرضا سلطانهما الحاسم على جهاز الدولة .

وسعى البنادقة ، بعد ان تخلت عنهم الدول الغربية ، الى اثارة طهماسب ، شاه فارس العجوز ، على السلطان العثماني ، وخوض غمار الحرب ضده . حتى اذا خلفه على العرش ابنه المستَضعَف محمد خدابنده اغتنم انصار الحرب من العثمانيين هذه الفرصة الملائمة لمناجزة خصومهم القدماء ، كرة اخرى . ففي سنة ١٥٧٧ هاجم

العثمانيون بلاد القبق (القوقاز) وفتحوا تِفْليس . وفي سنة ١٥٧٩ انشأوا قلعة قَرْصْ ذات الأهمية العظمى في توطيد دعائم احتلالهم. ولكنهم لم يستطيعوا نقل الحرب الى فارس ذاتها وانتزاع تبريز ، العاصمة السابقة ، الا سنة ١٥٨٥ . اما الصلح الذي اشتراه عباس الكبير من العثمانيين ، عقب ارتقائه العرش ، فقد عرفتَ نبأه في الفصل السابق .

وعزّز العثمانيون نفوذهم ، اثناء الحرب الفارسية ، في جنوبي الروسيا ايضاً ، ليتخذوا منها مركزاً لحملاتهم ضد بلاد الكُرْج ، سنة ١٥٨١ و ١٥٨٣ . كذلك افسحت لهم الاضطرابات الناشبة بين اهل القبق في مجال التدخل في شؤون بولنـــدة . والحق ان في ميسورنا ان نعتبر الملكين البولنديين اسطفان باثوري و (منذ سنة ١٥٨٧) سيجسموند تابعَين ، واقعيـــاً ، للسلطان العثماني . وعلى الرغم من وقف القتال بهدنة سنة ١٥٨٣ ، فقد ظلت جمرات الحرب متقـدة تحت الرماد وظلّ شررها يتطاير بالنزاع المستمر على الحدود النمساوية الى ان اشتعلت نيرانها بعد عشر سنوات . وكان حاكم البوسنة قد هُزم هزيمة مروّعة ، في حزيران سنة ١٥٩٣ ، اثناء غارة قام بها على سِسَك في بلاد المجر. ولم يكن بدٌّ من استئناف الحرب الكبرى ابتغـاء الانتقام وغسل العار . ولكنّ السلطان مراد الثالث توفي ، في ١٦ كانون الثاني سنـــة ١٥٩٥ ، قبل ان يقع شيء من ذلك .

معاهدة سيتفاتورك

وخلف مراداً الثالث ، على عرش السلطنة ، ابنه محمد الثالث ،

وهو آخر وليّ عهد عثماني اسند اليه حكم مقاطعة مغنيسيه ليكتسب من ذلك دربةً تهيئه لتسلم مقاليد السلطنة في ما بعد . حتى اذا كانت السنة التالية خاض هو بنفسه غمرات القتال ، وشاء له حسن طالعه ان يشارك في اول انتصار احرزته قواته في هذه الحرب : اعني التغلب على جيوش آل هابسبورج في أكَـري * . ولكن الحرب سارت ، بعد هذا النصر ، بخطى وئيدة جداً ، ثم استمرت كذلك عقب وفاة محمد سنة ١٦٠٣ وارتقاء ابنه احمد العرش . والواقع ان الحظ لم يجر في ركاب العثمانيين الا عند ما انحاز الى جانبهم بُوكَسْكاي ، الزعيم المجري ، بعد ان نُصّب اميراً على ترانسلفانيا ، وهكذا عُقد الصلح ، آخر الامر ، بين الفريقين بمعاهدة سيتڤاتورُك سنة ١٦٠٦ ، ولكن السلطان تنازل بموجبها عن الجزية التي كانت تُدفع اليه ، حتى ذلك الحين ، على صورة هبة .

الثورات الداخلية

وبرز أمام العثمانيين حتى في غمرة النصر الذي تم لهم في معركة أكري خطرٌ متأصل مافتىء يهدد كيان الدولة منذ امد بعيد . ذلك ان روحاً من التخاذل والخيانة دبت في نفوس الجنود الاقطاعيين ، وبخاصة في القسم الآسيوي من الامبراطورية . فاذا ذكرنا ان الانكشارية كانوا قد فقدوا ، منذ زمن بعيد ، احترامهم لسلطة السلطان ، ادركنا ان الجيش العثماني لم يكن في حالٍ تدعو الى الاطمئنان . والحق ان المصادر تنبئنا بان ما يزيد على

* Keresztes

ثلاثة آلاف من هؤلاء الجنود الاقطاعيين قد ولوا الادبار ، في ذلك الحين ، بسبب من قساوة الصدر الاعظم ، جغاله ، فلم يكن من هذا الاخير إلا ان اصدر امره الى مواطنيهم أنفسهم بتعقبهم ، ففعلوا . وفي سنة ١٥٩٩ أعلن عبد الحليم قره يازيجي — قائد فرقة «السكبان» الانكشارية — العصيان على الدولة ، بعد ان عاد افراد فرقته الى وطنهم الاول . واغلب الظن ان من انضم تحت لوائه من الناقمين كانوا ينزعون الى الحياة العثمانية القديمة . ومهما يكن من امر فقد وفق عبد الحليم الى احتلال الرُّهاء . وظن الباب العالي ان في ميسوره ان يستميله ويتألفه اذا ما اسند اليه ولاية اماسيه ، ولكن هذا الانعام لم يزده الا تمادياً في العصيان ، وقدرةً على التوسع على حساب الدولة . فما وافى نيسان سنة ١٦٠٠ حتى كان قد وفق الى ان يهزم والي دمشق وبغداد في معركة دارت رحاها قرب كيسانية . بيد انه ما لبث ان قتل في الميدان ، بعد ذلك بقليل ، فقام مقامه أخوه . ووفق هذا الاخير الى ان يحتفظ بقوته فترة من الزمان ولكن الدولة استدرجته الى اوروبة ، بما قد وعدته من الولاية على البوسنة ، حيث لقي حتفه ، هو والكثرة الكبرى من جنوده ، اثناء حصار بودا سنة ١٦٠٣

وفي تلك السنة نفسها تمردت حامية تبريز العثمانية ، فاغتنم الشاه عباس هذه الفرصة ، واستولى على المدينة . وهكذا وجد الباب العالي نفسه مضطراً الى القتال على جبهتين . والواقع ان حرب الفرس كانت ثقيلة الوطأة على الدولة بسبب من الثورات المتعاقبة التي قام بها زعماء العصابات في آسية الصغرى ، وبسبب من تمرد

جان بلاط * الكردي [٢٥] في سورية ، والامير الدرزي فخر الدين [المَعْني] في لبنان . فلما تمّ صلح سيتقاتورك استطاع العثمانيون في النهاية ، ان يهزموا جان بلاط فالتجأ الى فخر الدين ، في لبنان ، كما استطاعوا القضاء على اخطر الزعماء الثائرين في آسية الصغرى . حتى اذا استرد العثمانيون تبريز ايضاً ، رضي عباس بمعاهدة سلم أعفته من دفع الجزية غير انها لم تسوّ مشاكل الحدود بين فارس والعثمانيين الا تسوية مؤقتة على غرار ماسوّتها معاهدة سيتقاتورك بين المجر والدولة العثمانية .

وفي سنة ١٦١٧ توفي السلطان احمد فخلفه اخوه مصطفى ، بوصفه اكبر امراء البيت المالك سناً ، وفقاً لحق الخلافة القديم . بيد أنه اضطر بعد ثلاثة اشهر فحسب الى التنازل عن العرش لابن أخيه الشاب ، عثمان الثاني . وما هي إلا فترة حتى ادت المنازعات القائمة على الحدود بين العثمانيين والبولنديين الى نشوب معركة كبرى في ياش (٢٠ ايلول سنة ١٦٢٠) اضطرت السلطان الى ان يشترك بنفسه في القتال . وكانت لعثمان خطط بعيدة المرامي ، ولكنها تحطمت جميعاً عند اسوار قلعة خُوتين ** حتى اذا ألفى نفسه ، سنة ١٦٢١ ، غير قادر على ان يحقق شيئاً من خططه تلك ، اضطر الى ان يقبل بالصلح مع العدو . والواقع ان عثمان عزا اخفاقه هذا ، وكان محقاً في ذلك ، الى الانكشارية ، ومن هنا كان في ميسور

* وتكتب ايضاً « جانبلاط » و « جانبولاط » . [المعربان]

٢٥) وكان يحكم كليس (اوكلز ، بكسرفكسر ، في كليهما) قرب حلب حكماً وراثياً .

** Choczim

الصدر الاعظم ان يقنعه بمحاولة التخلص منهم ، والاعتماد من جديد على الولايات الآسيوية في الامبراطورية . وكان التدبير يقضي بان يجرد السلطان حملة على الامير فخر الدين في سورية ، وان يؤدي فريضة الحج الى مكة ليكون في ذلك ما يساعده على انفاذخطته . ولكن الانكشارية اطلعوا ، من طريق الخيانة ، على ما ُبيت لهم ، فأكرهوا السلطان على الغاء الحملة . حتى اذا ابى ان يسلم اليهم الصدر الاعظم طوقوه في السراية ، ورفعوا مصطفى الى العرش ، من جديد ، وكان نصف ابله . ثم ان عثمان قتل في «يدي قوله» بأشارة من الصدر الاعظم الجديد ، في ٣٠ نوار سنة ١٦٢٢ . ولم تمض غير سنتين اثنتين حتى اشتد ساعد العناصر الواعية في استانبول وصارت كلمتها هي العليا ، كرة اخرى . وفي ١١ ايلول سنة ١٦٢٣ اكره مصطفى على التنازل عن العرش لمراد الرابع ، خامس اولاد احمد ، وكان صبياً في الحادية عشرة . ولقد وُفّق مراد ، آخر الامر ، الى ان ُيفلت من نير الانكشارية ، سنة ١٦٣٢ ، والى ان يتخلص من زعمائهم بمساعدة القدماء من رجال الدولة . ليس هذا فقط ، بل لقد نقص عددَ الانكشارية بتعليق ضريبة الغلمان ، وانشأ لنفسه جيشاً جديداً يستطيع الاعتماد عليه .

الامير فخر الدين

وفي غمرة من هذا الاضطراب السائد في العاصمة ، أُصيب الحكم التركي في سورية بضربة ثقيلة قاصمة . ذلك بأن أمير لبنان الدرزي ، فخر الدين ، كان قد اعلن الثورة ، بالاشتراك مع جان بلاط الكردي ، على الباب العالي ، منذ سنة ١٦٠٣ ؛ ولكن الدولة

لم تتعرّض له ، حتى بعد هزيمة جان بلاط ، بل تركت اليه حكم البلاد الواقعة في حوزته ، لقاء جزية سنوية يدفعها . وما لبث فرديناند الاول ، دوق تسكانا، الذي عمرت نفسه روح المغامرة، ان اتصل به ابتغاء فتح اسواق جديدة لتجارة فلورنسا ، في حين كان فخر الدين يرجو ، ان يستعين بفرديناند هذا ، وبالبابا واسبانية ايضاً ، على فتح فلسطين . ثم ان فخر الدين استولى على بعلبك ، سنة ١٦١٠ ، وهدّد دمشق نفسها بالاحتلال . ولكن اسطولاً تركياً ما عتم ان ظهر على الشاطيء ، سنة ١٦١٣ ، فاضطر الامير الى الفرار الى ليفورنو * . وكان كوسموس الاول ابن فرديناند قد تولى مقاليد الحكم في تسكانا ؛ والحق ان فخر الدين عرض على كوسموس هذا مشروعاً بتجريد حملة صليبية جديدة ، ولكن كوسموس كان أعقل من ان يفكر في مثل ذلك . وقضى فخر الدين خمس سنوات في فلورنسا استطاعت أمه الحكيمة [نسب] في اثنائها ان تدافع عن بلاده ، باسم حفيده أحمدعلي، ضد باشا دمشق . حتى اذا رجع فخر الدين من ايطالية اضطر الى ان يواصل الاعتراف بابنه اميراً على البلاد ، ولكنه قاد بالنيابة عنه الحرب ضد العثمانيين . والواقع أنه وفق ، أثناء الحرب الفارسية ، الى ان يبسط سلطانه على الشاطيء السوري حتى انطاكية . وفي سنة ١٦٣١ نشأ بينه وبين الباب العالي نزاع بسبب من رفضه السماح لجيش من جيوش السلطان حشد لحرب الفرس ، ان يقضي فصل الشتاء في دياره ، وطرده لهذا الجيش بقوة السلاح .

---

* Leghorn

وبعد سنتين اثنتين وجهت الدولة ، رداً على هذا النقض لاحكام السلم ، اسطولاً آخر الى الساحل السوري فاحتلّ المرافيء جميعاً ، في حين هاجم الولاة العثمانيون الدروزَ في البرّ . وفي ١٥ تشرين الاول استدْرج عليّ بن فخر الدين الى خوض معركة فاصلة دارت رحاها في السهول ، فهزم هزيمة شنعاء ولقي حتفه هو وعمه .
وهكذا اضطر فخر الدين ، في ١٢ تشرين الثاني ، الى ان يستسلم في مفزعه الاخير ليُحمل الى استانبول ، حيث حُزّ رأسه في ١٣ نيسان سنة ١٦٣٥ ، بعد ان قام ابن اخيه ملحم بمحاولة مخفقة في سبيل الاثئار لشرف أسرته من طريق الثورة المسلحة .

وفي سنة ١٦٢٣ اندلعت نار الحرب مع الفرس من جديد ، بعد ان أسلم الوالي العثمانيّ بغدادَ الى الشاه . ومن هنا نشبت بين الفريقين المتنازعين حرب عصابات دارت رحاها ، طوال خمس عشرة سنة ، حول هذه المدينة ، وفي القبق وآذربيجان ايضاً . وفي سنة ١٦٣٥ خرج مراد الرابع على رأس جيشه الجديد يريد إرمينية . فلما وافت سنة ١٦٣٨ وُفق الى ان يفتح بغداد من جديد ، ليعقد الصلح مع الفرس في السنة التي تلت .

ولم يعش مراد الرابع ، بعد اختتام الحملة الفارسية على هذا الشكل السعيد إلا مدة يسيرة ، فقد غالهُ الشرابُ فمات في ٩ شباط سنة ١٦٤٠ . حتى اذا رقيَ اخوه ابراهيم عرش السلطنة أطلعت الفوضى الادارية رأسها وقامت دولة النساء ، كرّة اخرى ، في استانبول وهما الآفتان اللتان كبح مراد جماحهما في السنوات الاخيرة من حكمه . والواقع ان قره مصطفى ، الصدر

الاعظم ، استطاع في السنتين الاولين من وزارته ان يصدّ تيار هذه العوامل في شيء من النجاح ، ولكنه اشترى بذلك عـداء كثير من الناقمين الذين أوذوا في مصالحهم الخاصة بسبب من الاقتصاد في نفقات الجيش والاسطول ، واصلاح السكة (النقد) واقامة نظام الضرائب على أسس جديدة . وهكذا كان من الهين اليسير على السلطانة الوالدة وثلاثٍ من محظيات ابراهيم ان يُثيرنَ الانكشارية عليه ، حتى اذا طالب هؤلاء برأسه ، في ٣١ كانون الثاني سنة ١٦٤٤ ، لم يجرؤ السلطان على معارضتهم .

الحرب ضد البندقية

وعلى الرغم من ضعف ابراهيم فقد وُفـّق العثمانيون في عهده الى ان يستجمعوا قواهم فينهضوا ، من جديد ، بعملٍ عسكريّ كبير في أوروبة . ذلك بأن البنادقة كانوا لا يزالون مسيطرين على بحر إيجه ، من جزيرة إقريطش (كريت) ؛ وإن تكن استانبول قد عرفت ، منذ زمن بعيد ، كيف تستخف بهم وتزدريهم بسببٍ من تراجعهم عند كلّ اصطدام يقع على حدود دلماسيا ، أو مـع دويلات البربر [في افريقية الشمالية] وسعيهم الى شراء الصلح بالأموال . واخيراً وطّدت الدولةُ العزمَ على أن تسلبهم آخر ممتلكاتهم في المشرق . فلم تطلّ سنة ١٦٤٤ حتى نشطت دُور الصناعة نشاطاً عظيماً ، وقام الاستعداد للحرب على قدم وساق. وفي غرّة حزيران من السنة التالية اصدر الباب العالي أمره باعتقال جميع البنادقة في طول الامبراطورية وعرضها ، ومصادرة اموالهم وممتلكاتهم ، مُعلناً بذلك الحربَ على البندقية . ثم إن الاسطول

العثماني القى مراسيَهُ في إقريطش ، من غير مامقاومة جدّية ،واحتل حانِيه * عند حلول الخريف . والواقع أن العثمانيين لم يتقدّموا بعد ذلك إلاّ تقدّماً بطيئاً كان مدعاةً الى النقمة في استانبول حيث دُبرّت مؤامرة للتخلّص من السلطان ، الذي اعتُبر مسؤولاً عن هذا البطء ، والذي كان يبدّد موارد الدولة على متارفه المجنونة . فلما كان يوم ٨ آب سنة ١٦٤٨ خُلع ابراهيم ليُخنق بعدعشرة أيام. ثم رفع المتآمرون ابنه محمداً الرابع الى عرش السلطنة ،وكان صبياً لمّا يبلغْ سنّ الرشد .

كوبريلي يعيد تنظيم الامبراطورية

ولم تمض غير ثلاث سنوات حتى انفجرت في البلاط ثورة أخرى قضت على النفوذ السيء الذي كان لجدّة السلطان الصغير ، في حين كانت أمه قد شرعت تتطلع بانظارها الى الرجل الذي قُيض له ان يعيد تنظيم الدولة . وكان هذا الرجل هو محمد كوبريلي ؛ نسبة الى كوبري القائمة على نهر القزل إرماق ، قرب اماسيه . وقد هاجر اليها جدُهُ من البانيا . والذي يبدو انه دخل السراية ، اول ما دخلها ، كأحد افراد ضريبة الغلمان . ولكنه لم يلبث ان انتقل من الخدمة الدنيا في البلاط الى خدمة الدولة فكان خازناً للصدر الاعظم ، ثم أصبح والياً (باشا) على دمشق ، وطرابلس الشام ، والقدس ، ليعود بعدُ الى العاصمة فيتقلد وزارة القبّة . حتى اذا انتهى الى هذه الغاية المرموقة نجح خصومه في الدس عليه والتآمر ضده فانقلب الى وطنه

---

* Canea

الاول . ثم ان الصدر الاعظم ، [محمد باشا] المعروف بلقب بويني اكري – اي العنق الاعوج – استدعاه من هناك الى العاصمة .

في هذه الاثناء كان البنادقة يسعون ، على غير طائل ، في سبيل حمل الدول الاخرى على مساعدتهم في حربهم اليائسة للاحتفاظ بمركزهم في الشرق . لقد عجزوا عن استنقاذ قنديه ، ولكنهم تقدموا شيئاً ما في دلماسيا ؛ وفي سنة ١٦٥١ وفقوا الى دحر الاسطول العثماني عند باروس .

وهنا جاء دور كوبريلي في العمل بعد أن انتهت الدولة العثمانية بسبب من هذه الهزيمة ، الى الدرك الأسفل من البؤس والعجز . والحق انه كان قد بلغ الثمانين عندما قبل ان يتولى ، في ٢٢ أيلول سنة ١٦٥٦ ، منصب الصدارة العظمى شريطة ان يمنحه السلطان سلطة مطلقة ، واشرافاً على جميع المناصب والدوائر . وهكذا استأصل روح الثورة من طريق القتل الجماعي الذي اعمله في قسوة بالغة ، ومن غير ما استبقاء ، فأصاب فيمن أصاب نفراً من المقربين الى سراية السلطان نفسها . ثم انه انعش الحياة المالية من طريق الاستعارة من خزانة السلطان الخاصة بسخاء ، وحلّ الاوقاف واختصار الموارد الخاصة برجال الدين . ولقد وفق كوبريلي، قبل وفاته سنة ١٦٦١ ، الى ان يضمن لابنه احمد خلافته في منصبه ، فنجح هذا في توطيد دعائم الاصلاح الذي ابتدأه ابوه ، واتمامه من غير ان يلجأ الى اساليبه الوحشية الدامية .

والحق ان هذه النهضة الداخلية التي نفخت في الدولة العثمانية روحاً جديدة ما لبثت ان بدت آثارها في ما اتخذته الدولة من

اجراءات تنضح بالعزم والقوة ضد جيرانهـا في الشمال . ففي ترانسلفانيا أقصى الباب العالي الامير جورج راغوچكي الذي حاول ان يتملص من التزاماته الاقطاعية تجاه السلطان ، واقام مكانـه [الامير ميخال] آبافي ، وكان طيعاً سهل القياد . حتى اذا ابى الامبراطور ، بضغط من المجريين ، ان يعترف بـ « آبافي » هذا ، تهدده الباب العالي بالحرب . وهكذا بُعثت في اوروبة فكرة الواجب المشترك الذي يفرض على العالم المسيحي كله العمل في سبيل دفع الخطر التركي ، وهي الفكرة التي طالما رجا البنادقة تحقيقها على غير طائل . حتى الملك لويز الرابع عشر لبى دعوة البابا الى نصرة اخوانه في الدين ضد الاتراك ، على الرغم من صلاتـه الطيبة بالباب العالي ، فحمل الامراء الالمان الذين يؤلفون عصبة اوسبرج (اتحاد الرين) وكانوا حلفاءه ، على ان يضعوا عشرين الف رجل تحت تصرف الامبراطور الالماني ؛ فأحرجت هذه البادرة بلاط ڤينا ، وكان لا يزال يسعى الى اجتناب الحرب ويأمل في مفاوضة العثمانيين . ولكن صبر السلطان ما عتم أن نفد ، فأصدر امره الى قواته بالهجوم على المجر ، في نيسان سنة ١٦٦٣ . حتى اذا انتهى العثمانيون الى ان يهددوا ڤينا نفسها دعا الامبراطور اتحاد الرين ، بل دعا السويد ايضاً ، الى نجدته . ومهما يكن من امر ، فقد كُتب له النصر في معركتين طارت لاحداهما شهرة عريضة وهي تلك التي جرت عند جبل القديس غوتارد على نهر الراب . ولكنه ما لبث ، برغم هذا النصر ، ان عقد الصلح مع العدو ، سنة ١٦٦٥ ، لكي يفرغ لمناوأة السياسة الفرنسية .

بذلك صار في مقدور العثمانيين ان يلقوا ، من جديد ، بقوتهم الكاملة الى ميدان الحرب في اقريطش ، حيث كان حصار قنديه بعيداً ، ما يزال ، عن احراز ايما تقدّم او نجاح . وكان البنادقة لا يفتأون يمنون النفس بمساعدة فرنسة على الاقلّ ، ولكن لويز الرابع عشر لم يكن راغباً في إثارة الباب العالي والاصطدام به . والواقع انه كان قد اعتذر رسمياً ، في استانبول ، من تقديمه المساعدة الى الامبراطور . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت استانبول تنقم منه اجراءاته القسرية ضدّ دويلات البربر في افريقية الشمالية . ذلك بانه احتلّ في ٢٣ تموز سنة ١٦٦٤ جِيْجَل ابتغاء القضاء على القرصنة البحرية (ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الاحتفاظ به الى أبعد من ٣١ تشرين الاول) وأطلق اسطوله النار على الجزائر وتونس سنة ١٦٦٥ . وهكذا لم يسمح لويز ، بعد صلح أكس لاشايل ، إلا لبعض الافراد من الضباط بالالتحاق في خدمة البندقية ؛ فكان على البنادقة ان ينتظروا مساعدته ، حتى صيف سنة ١٦٦٩ ، عندما أبحر الى اقريطش اسطول فرنسي يتألف من سبعة آلاف رجل . ولكنْ ، لا هذه المساعدة ولا تلك التي اسداها كل من الامبراطور ودوق برونْزْويك ، استطاعت ان تنقذ القلعة المحاصرة من السقوط ؛ فتعيّن عليها ان تستسلم في ٦ ايلول . حتى اذا عُقدت معاهدة الصلح انسحب البنادقة من اقريطش .

الحرب ضد بولندة

وطمح العثمانيون ، بعد ان استعادوا سيطرتهم على شرق البحر

المتوسط ، الى ان يبسطوا سلطانهم في الشمال الشرقي ايضاً . وفي سنة ١٦٦٨ انضوى الزعيم القوقازي دُورُوشنكو ، وكان حتى ذلك الحين تابعاً للتاج البولندي ، تحت لواء الباب العالي . ولكن الدولة لم تطلب الى بولندة التنازل عن اوكرانيا الا سنة ١٦٧٢ ، بعد ان وثقت من ان لويز الرابع عشر لن يتدخّل . فلما كان شهر ايلول عقد ميخال ، ملك بولندة ، معاهدة صلح ذليل مع الدولة ، تخلّى فيها عن بودُولْيا واوكرانيا ، وذلك بعد ان فقد قلعة قَامِنيجْ القائمة على الحدود ، إثر حصار قصير الأمد . ولكنّ المارشال سوبِيْسكي ما لبث ان نقض هذه المعاهدة في السنة التالية ، فكُتِبَ له النصر في ١١ تشرين الثاني عند خُوتِين ؛ وإذ قد توفي الملك ميخال بعد ذلك بقليل فقد ارتقى العرش فعُرف بـ « حنا الثالث » ، (١٦٧٤ – ١٦٩٦) بيد أنه لم يوفق ، هو أيضاً ، الى ان يحقق أيّما نصرٍ دائم في الحملات التي تلت . حتى اذا حاول أن يعبر الدنيستر ، سنة ١٦٧٦ ، مستمداً القوة والعزيمة من انتصارٍ احرزه في لوويج * ، طوّقت قواته عند زورَاونو ، فاضطر الى ان يرتضي ، في تشرين الاول ، صلحاً تنازل بموجبه ، كرة اخرى ، عن القسم الاعظم من بودُوليا واوكرانيا . وفي السنة نفسها توفي احمد كوبريلي ، وليس له من العمر غير احدى واربعين سنة ، فيما كان يقوم برحلة الى معسكر السلطان ، قرب أدرنة .

وإنما تدين بولندة بهذا الصلح الشريف للنزاع الذي نشب ، آنذاك ، بين الروسيا والباب العالي ، والذي تعرضت بسببه سلامة

---

* Lwow

الدولة العثمانية للخطر . ذلك بان العثمانيين سبق أن تدخلوا في حروب اهل القبق [القوقاز] ضدّ الروس ، في اوكرانيا . فنشبت بين الفريقين (العثمانيين والروس) حرب طاحنة تكبد كل منهما، فيها ، خسائر فادحة . حتى اذا كانت سنة ١٦٨١ عُقدت بينهما معاهدة صلح استولت الروسيا بموجبها على كِيَف والمناطق المحيطة بها .

هزيمة الاتراك في فينا واخراجهم من المجر

ولم يكد العثمانيون يطمئنون الى استتباب السلام في الشرق حتى حشدوا كاملَ قوتهم لحرب المجر من جديد . وكان النبلاء المجريون، وعلى رأسهم الكونت تُكُلي ، قد اقترحوا على السلطان اخضاع ما بقي من المجر تحت الحكم النمسوي ، مقابل ادائهم جزية سنوية ؛ فجهز السلطان جيشاً سار من بلغراد لقتال الامبراطور ، في نوار سنة ١٦٨٣ . وكان جيش الامبراطور يتوقع الحصول على إمدادات جديدة ، فانكفأ متمهلًا الى ڤينا . وفي ١٧ تموز حاصر العثمانيون العاصمة بقيـادة الصدر الاعظم عمر مصطفى . ولكن جيشاً كبيراً ما لبث ان برز من المانية ، على الرغم من تهديـدات الملك لويز ؛ ولقد استطاع هذا الجيش ، بالتعاون مع فرق بولندية ان يُنزل الهزيمة بالعثمانيين ، عند قاهْلنبرْج ، في ١٢ ايلول ، وان يكرههم على رفع الحصار عن العاصمة . ومع ان الخلاف ما عتم ان شجرَ بين الالمان وملك بولندة ، سوبيسكي ، بسبب من مطالب هذا الاخير ، فقد وُضعت الخطة الرامية الى استنقاذ المجر بكاملها في عزيمة وحزم . وفي ٥ آذار سنة ١٦٨٤ ، وبفضل تدخل البابا، عُقد بين الامبراطور وسوبيسكي حلفٌ ، انضمت اليه البندقيـة

ايضاً ، هدفه النضال المشترك ضد الاتراك .

ومُني العثمانيون ، بعد ذلك ، بالهزيمة تلو الهزيمة في المجر . وفي سنة ١٦٨٦ ظهرت القوات الامبراطورية الالمانية امام ابواب بودا وضربت عليها الحصار . وبعد شهرين اثنين سقطت هذه المدينة ، وكانت طوال ١٤٥ سنة دعامة الحكم العثماني في المجر ، في ايدي المحاصرين .

ولم يؤدّ احدٌ من اعضاء التحالف الآخرين ما فُرض عليه من مهام ، باستثناء اهل البندقية ؛ ولكن انتصاراتهم اختُتمت هي ايضاً باحتلال اثينا ، سنة ١٦٨٧ ، ليُضطروا الى اخلائها في السنة التالية . وحاول البولنديون ، من سنة ١٦٨٤ الى سنة ١٦٨٧ ، ان يستردّوا قَامنج ، على غير طائل . وفي سنة ١٦٨٧ انضمت الروسيا الى التحالف ولكن محاولتها الاستيلاء على شبه جزيرة القرم باءت بالأخفاق ايضاً .

ولكن بعد ان مُني الجيش العثماني بهزيمة اخرى قاصمة ، عند مُهاج (موهاكس) في المجر ، سنة ١٦٨٧ شبت نار الثورة على سليمان ، الصدر الاعظم ، لتمتد في الحال الى استانبول . وعلى الرغم من ان السلطان ضحى بسليمان هذا ، فقد أخذ عليه اهماله لمصالح الدولة العليا بعد ان شغله عنها القنص والطرد . وفي ٨ تشرين الثاني انعقد في آيا صوفيا مؤتمر للعلماء ، فأعلن خلع السلطان [محمد الرابع] ثم رفع – نزولاً عند نصيحة القائم مقام ، مصطفى ابن احمد كويريلي ، نائب الصدر الاعظم – أخاه سليمان الثاني الى العرش .

وفي الصيف التالي زحفت القوات الامبراطورية على بلغراد ، فاستولت عليها في هجوم شنته في ٦ ايلول سنة ١٦٨٨ . وكان البلاط الامبراطوري في ڤينا قد شرع ، منذ مدة ، يفكر في طرد العثمانيين من اوروبة كلها . ولكن العثمانيين وفقوا ، الى أن يجمعوا قواتهم ، كرة اخرى ، في تشرين الثاني سنة ١٦٨٩ عندما قفز الى رئاسة الحكومة صدرٌ اعظم جديد ،هو مصطفى كوپريلي الذي ذكرنا آنفا ، اثر هزيمة شنيعة منيت بها القوات العثمانية في نِيش . والحق انه كان رجل دولة مقتدراً ، وان جهوده في سبيل اصلاح الجهاز المالي وتنظيمه كانت ناجحة . ولكن الخبرة العسكرية كانت تعوزه ، وان يكن قد وفق الى استرداد بلغراد في ٨ تشرين الاول سنة ١٦٩٠ . حتى اذا هاجم المجر في السنة التالية قضى نحبه ، في ١٩ آب ، في معركة سالانْكَمَنْ المشؤومة .

صلح كارلوويتج

واخيراً رقي العرش ، سنة ١٦٩٥ ، سلطان من اولي العزم هو مصطفى الثاني الذي خلف عمه احمد الثاني . والواقع انه تقلد بنفسه زمام القيادة العليا في المجر، فوفقَّ الى إنقاذ طِمِشْوَار * ولكنه وجد في شخص اوجين ، امير ساڤواي ، ضريباً له في قوة الشخصية ومضاء العزيمة ؛ ولقد استطاع اوجين هذا ان يبيد جيش السلطان عند زَنْطه ، على نهر تِيس ، في ١١ ايلول سنة ١٦٩٦ . وهنا تولى مقاليد الادارة في استانبول رجلٌ آخر من اسرة كوپريلي هو عموجه زادَه حُسين . ولما كان القيصر بطرس قد استأنف

---

* Temesvar

الحرب ايضاً ، سنة ١٦٩٥ ، ضد العثمانيين ، ليوفق سنة ١٦٩٦ الى ان يفتح آزُوف (آزاق) ، فقد قبل السلطان الوساطة التي عرضتها عليه بريطانيا وهولندة . وهكذا عُقدت في كارلوويچ، ٢٦ كانون الثاني سنة ١٦٩٩ ، معاهدة صلح أُكره فيها البابُ العالي على التخلي لآل هابسبورج عن ترانسلفانيا حتى طمشوار ، وعن المجر برمّتها تقريباً ، وعن القسم الاعظم من إسلاوُونيا * وكرواتيا ؛ كما اكره على ان يتنازل للبولنديين عن قامنچ وجميع ما فتحوه في يودوليا وعن اوكرانيا ايضاً ؛ في حين تنازل للبنادقة عن الموره وعددٍ من الاماكن في دلماسيا .

والواقع أنّ السلطان انسحب ، بعد هذا الصلح غير المجيد ، الى أدرنة ، تاركاً شؤون الدولة كلهـا تقريباً للمفتي ، فيض الله [افندي] ، الذي كان قد طرد كوپريلي ، واستثار كرهَ الناس وبغضهم بشحّه وتقديمه لذوي قرباه ومحاباتهم من دون الناس . فما هي إلا فترة يسيرة حتى اندلعت الثورة في تموز سنة ١٧٠٣ ، ودُعي السلطان الى استانبول ليَمْثُلَ امام الديوان ويبرر موقفه ، حتى اذا تخلف عن تلبية الدعوة خُلع عن العرش وانتخب اخوه احمد سلطاناً .

بطرس الاكبر وشارل الثاني عشر

وبالتنازل عن آزوف الذي تم بُعيد معاهدة قارلوويچ فُتحت أبواب البحر الاسود في وجه القيصر ، وكان حتى ذلك الحين بحيرة عثمانية . وإذ قد انتهى شارل الثاني عشر الى ان يصبح الآن خصماً

---

* Slovenia

خطراً للدولة العثمانية ، فقد آثر الباب العالي ان يحسّن صلاته به حتى اذا ُهزم في بولتاوا أسبغ عليه حمايته في قلعة بَنْدَر العثمانية . ولكن الباب العالي لم يشرع في الاستعداد لحرب القيصر الا في اواخر سنة ١٧١٠ ، بعد ان عجز عن الاتفاق معه على عودة شارل الى بلاده . وهكذا اضطر بطرس الى ان يطرّح عملياته الحربية في مقاطعات البلطيق ويعود ادراجه في اتجاه الجنوب . والحق انه كاد يقع في أسر العثمانيين هو وجنوده جميعاً ، على نهر البروت ، ليوفّق بعدُ - بفضل الرشوة التي اشترى بها ضمير الصدر الاعظم ، وحدها - الى ان يتراجع في تموز سنة ١٧١١ بشروط غير شائنة . ولقد كان عليه ان يُخلي آزوف ، ويدكّ حصون طِيغان (تاغانروغ) دكاً .

صلح بازارويج

واذا كان الباب العالي قد وافق على هذه المعاهدة التي لم تكن ، على ما يظهر ، في مصلحته فذلك لانه كان يتوق الى استعادة ما فقده من مقاطعات بحكم معاهدة قارْلوِويج باكثر من توقه الى التوسع في الشمال الشرقي . وفي سنة ١٧١٤ اتخذ الباب العالي من خلاف نشب في الجبل الاسود ذريعة الى شن الحرب على البندقية ، وما هي الا فترة يسيرة حتى خسرت الجمهورية آخر ممتلكاتها في الموره وجزر الارخبيل . ولكن الامبراطور تدخل عندئذ في الحرب . وفي ٥ آب سنة ١٧١٦ احرز الامير اوجين نصراً في بترُوَارادين * ، وفي تشرين الاول فتح طَمِشْوَار ، آخر

* « وارادين » في المصادر التركية . [المعربان]

الحصون العثمانية في الارض الهنغارية ، ليستولي في السنة التالية على بلغراد نفسها . ولكن السياسة الاسبانية في ايطالية ما عتمت ان اعترضت سبيله الظافر . فاضطر الامبراطور الى ان يرتضي عروض الصلح العثمانية . وفي المعاهدة المعقودة في پازارُوويچ ، يوم ٢١ تموز سنة ١٧١٨ ، تنازل الباب العالي للامبراطور عن بلغراد وعن كامل منطقتها الى مصبّ نهر الآلوته في الطونه (الدانوب) في حين كان على البنادقة الى ان يتخلوا عن الموره .

دولة الافغان في فارس

ولكن الباب العالي الفى نفسه مضطراً ، كرةً أخرى ، الى أن يحوّل اهتمامه الى الحالة في آسية ، بعد أن نشبت القلاقل في بلاد خصومه القدماء : الفرس . وتفصيل ذلك أن الخلاف شجر بين الشاه حسين – وهو آخر المتحدرين من الشاه عباس ، وقد رقي العرش منذ سنة ١٦٩٤ – وبين الافغانيين الذين سبق أن دخلوا في حماية الفرس فراراً بانفسهم من الخضوع لحكم مغول الهند ، والذين استطاعوا مع هذا أن يحتفظوا باستقلالهم حتى ذلك الحين . حتى اذا حاول الشاه أن يحدّ من حريتهم اكثر ، شق زعيمهم ، مِيْر وَيْس ، عصا الطاعة ، موطداً سلطته كأمير مستقل ، حتي وفاته سنة ١٧١٥ . ثم ان خليفته الثاني ، مِير محمود ، انتقل الى الهجوم على فارس ، ليوفق في تشرين الاول سنة ١٧٢٢ ، الى ان يخلع آخر الصفويين ، في إصفهان ، عن العرش . والحق أن القيصر بطرس استغل هذه القلاقل فاستولى على مقاطعة داغِستان القوقازية . ومن هنا التمس زعيم قبائل اللاّزْ الذين

استقروا في شَماخي عاصمة شروان ، حماية الباب العالي من القيصر ودخل في طاعة السلطان فأقطعه دَرْبَنْد. ولكن بطرس كان قد اندفع في تقدمه فبلغ باكو ، فاضطر الباب العالي الى ان يتنازل له عن تلك البلاد حتى مصب نهر كور في نهر آراس .

ولم يكن الفرس في وضع يساعدهم على مقاومته . فقد وفق حسين بن طهماسب الى ان يقف في وجه محمود ، الافغاني ، ويصده؛ ولكن أشرف ، خليفة محمود هذا ، عاد فأكره حسيناً على التراجع الى مازندران . حتى اذا أثار أشرف مسألة الاعتراف به إماماً مساوياً للسلطان اندلعت نار الحرب بين الفريقين . وعلى الرغم من النصر الذي أحرزه الافغان سنة ١٧٢٦ فقد انتهت هذه الحرب بتنازلهم عن دعاواهم ومطالبهم . ولكن سيطرتهم على فارس لم تعمر طويلاً . فقد تصدّر لحربهم في خراسان زعيم قبيلة الأفشار التركمانية ، نادر قُولي ، ليهزمهم هم وطهماسب في تشرين الاول سنة ١٧٢٩ عند مِهْمان دُوسْت ، ثم في كانون الثاني سنة ١٧٣٠ عند شيراز . وقتل أشرف في بلوخستان بينا كان يلوذ بالفرار .

وهاجم طهماسب ، في الحال ، ممتلكات العثمانيين في فارس أيضاً ابتغاء استرجاع امبراطورية آبائه وأجداده بحدودها السابقة . حتى إذا أظهر السلطان تردداً في إعلان الحرب عليه ثار الانكشارية في استانبول فخلعوا احمد الثالث عن العرش ، في ١ تشرين الاول سنة ١٧٣٠ ، ونادوا بابن أخيه محمود الاول سلطاناً . ولكن النظام لم يُقر في العاصمة إلا بعد سنتين اثنتين من طريق تصيّد المتمردين حتى قتل خمسون الف رجل .

ولكن نادر قولي الذي تسمى بنادر طهماسب قولي خان تيمناً باسم متبوعه شاه فارس ، ما لبث أن خرج على مولاه وتوج عباساً ، ابن الشاه ، وكان طفلاً في المهد ، ما يزال . ثم إنه عقد معاهدة مع الروسيا وأعلن الحرب ، في كثير من الجرأة والاقدام ، على العثمانيين . وبعد ثلاث حملات مظفرة استبد هو بأمر الدولة في ١٠ آذار سنة ١٧٣٦ (وكان عباس الصبي قد توفي) ، وعقد مع الباب العالي صلحاً تنازل العثمانيون بموجبه عن جميع مكاسبهم السابقة حتى بغداد . وكان نادر التركماني قد أكره ، قبل ارتقائه العرش ، جميع أشراف الفرس الذين عظموه كمنقذ ومخلص ، على أن يطرّحوا العقائد الشيعية التي استحدثها اسماعيل الاول ، باعتبارها مخالفة لمذهب أسلافه . ومهما يكن من شيء فانه لم يكلفهم العودة الى السنة ، بل اعتبرهم اصحاب مذهب سني جديد (خامس) اتخذ اسمه من الامام جعفر الصادق . والواقع أن نادراً سعى ، في معاهدة الصلح مع تركيا الى ان يحتفظ لأتباع المذهب الجديد بمنطقة خاصة في مكة يؤدون فيها صلواتهم . ولكنّ هذا الاصلاح الرائع ما عتم ان اصبح ، عقب وفاته ، اثراً بعد عين .

وكان الباب العالي قد اصطدم بالروسيا ، غير مرّة ، اثناء هذه الحرب ، بسببٍ من تتار شبه جزيرة القرم . ولكنّ ما جريات الامور في بولندة غلت يد الامبراطورة حنّة ، على الرغم من انها كانت قد وطدت عزمها على مواصلة التقدم نحو البحر الاسود

وبحر قزوين متبعةً في ذلك خطوات بطرس [الاكبر] . ليس هذا فحسب ، بل لقد حالت الدول البحرية دون هجوم [الروس] على الباب العالي ، لان مصالح تلك الدول التجاوية حدت بها الى الحدّ من اي توسع رومي آخر . حتى اذا انقضت الاضطرابات البولندية هاجم الروسُ العثمانيين في تشرين الاول سنة ١٧٣٥ ولكنهم لم ينتهوا بادىء الامر الى ابعد من آزوف . وحاول الامبراطور الالماني الذي كان مقيداً بمعاهدة تفرض عليه مساعدة الروسيا ان يتوسط بادىء الرأي بين الفريقين المتنازعين ، فلم يشارك في القتال إلا سنة ١٧٣٧ . ولكن جيوشه منيت بالهزيمة تلو الهزيمة ، حتى اذا كانت سنة ١٧٣٩ أسلمت بلغراد الى العثمانيين ولمّا يمض على حصارهم لها غير فترة يسيرة . والحق ان الامبراطور تنازل في المعاهدة التي عُقدت بعد ذلك مباشرة عن جميع المغانم التي كسبها في صلح بازارُوويچ ، ومن ثم اضطرت الروسيا الى ان توقع معاهدة لم تغنم بموجبها غير مدينة آزوف ، وكانت في حالة دمار . وفي سنة ١٧٤٠ جدّد الباب العالي اعترافه بالحماية الفرنسية على نصارى المشرق ، جزاء تأييد فرنسة الديبلوماسي له في هذه الحرب.

وبعد ان اعاد نادر شاه انشاء الامبراطورية الفارسية بالحدود التي كانت لها ايام الصفويين حدّثته نفسه بشنّ حملة في اتجاه الجنوب على دولة المغول الواسعة الغنى في الهند ، وكانت في حال فاضحة من الضعف العسكري . وفي حزيران سنة ١٧٣٧ اجتاح غَزْنَه وكابُل في سهولة ويسر ، ثم بعث ابنه رضا قُولي الى فارس نائباً عنه ووصياً على العرش . أما هو فسار بادىء الأمر الى لاهور فسقطت في يده ، في شباط سنة ١٧٣٩ .

وهنا خرج لقتاله محمد شاه المغولي من دلهي فوقع في اسر نادر شاه بعد أن نزلت بجنده هزيمة" ماحقة في ٢٤ شباط سنة ١٧٣٩ . وتابع نادر زحفه الى دلهي ، فدخلها ، وفي نوّار أعاد الى محمد شاه سلطته كحاكم بعد ان تنازل هذا للفاتح عن جميع المقاطعات الواقعة شمالي نهر السند . والواقع ان الجزية الهائلة التي فرضها نادر على المغوليّ ، والتي شملت في ما شملت الماسة المشهورة « كُوه نور » و « عرش الطاووس » ، مكّنته من اعفاء فارس كلها من الضرائب على اختلافها ،طوال سنوات ثلاث . ووجّه نادر همته ، بعد الحملة الهندية ، الى الحدود الشرقية من امبراطوريته ابتغاء إخضاع الاوزبك في بخاري وخُوارِزم ،وكان الهجوم على خراسان دأبهم وديدنهم . ولقد وفق الى ذلك من غير ما اراقة للدماء ، واعاد الى زعيمهم (ويلقب بالخان) سلطته ، على ان يكون تابعاً اقطاعياً له ، واكرهه على الاعتراف بان حدوده اصبحت على نهر جيحون . وفي ١٥ نوار سنة ١٧٤١ جرت محاولة لاغتيال نادر في مازندران ، اثناء الحملة التي شنها على اللاّز في القبق (القوقاز) . وقد قيل ان مدبرها كان وليّ العهد رضا قولي . واقتص الشاه من ابنه فسمل عينيه ، لينقلب منذ ذلك الحين الى طاغية لا يزيده كرور الايام إلا تعطشاً الى الدماء . وكان الباب العالي قد أبى ان يجيب نادر شاه الى ما طلب من الاعتراف بالمذهب الخامس الجديد الذي اقامه في فارس ؛ فشنّ حملة على الممتلكات العثمانية في الجزيرة الفراتية . ولكن باشا بغداد وفّق الى ان يصرف نادر شاه ، بالمفاوضة البارعة ، عما اعتزم من

القتال . وهكذا قنع الشاه بالحج الى مدن العراق المقدسة وحصل على اعتراف رسمي جديد ، من مؤتمر للعلماء عُقد في النجف ، بشرعية المذهب الذي أقامه . وكانت القلاقل الناشبة في داخل امبراطوريته قد عاقته عن السير بهمة اعظم ضد الاتراك في الجزيرة الفراتية ؛ حتى اذا كانت سنة ١٧٤٦ ووجه اليه السلطان جيشاً جديداً قنع ، على الرغم من نصره الباهر في أريوان ، بأن يعدّل الحدود بينه وبين الدولة لتعود كما كانت عليه عهد مراد الاول ، واقلع عن مطالبة الباب العالي باقرار مذهبه الجديد ، معلناً اعترافه هو بالسلطان العثماني خليفةً على المسلمين . وليس من شك في ان نادر شاه أخمد الثورات المتواصلة في امبراطوريته في قسوة كانت تزداد ضراوة مع الايام ، بدليل اهرام الجماجم التي تركها وراءه حيثما سارت جيوشه . والحق انه كان يخوض غمار حملة من هذه الحملات عندما اغتيل ، في ٢٠ حزيران سنة ١٧٤٧ ، عند فتح آباد في مقاطعة قوچان الكردية بأيدي بعض زعماء قبيلته ، الافشار ، بالاتفاق مع القاجار ٢٥ . وخلف نادرشاه ابنُ أخيه عليّ قولي — الذي تسمى بعد ارتقائه العرش عادل شاه — وما هي الا سنة واحدة حتى اضاع امبراطوريته في الحروب التي اضطرّ الى ان يخوضها ضد الطامعين في العرش، الشاقين عصا الطاعة في كل مكان . وانما كُتب النصر ، آخر الامر ، لأحد هؤلاء ، كريم خان ، وهو فارسيّ من الجنوب ، من قبيلة زَنْد . والواقع

---

(٢٥) انظر لوكهارت L. Lockhart, *Nadir Shah, a critical study based mainly upon contemporary sources*, London, 1938.

انه حكم الامبراطورية كلها من شيراز ، من سنة ١٧٥٠ الى سنة ١٧٧٩ ولكنه كان يعتبر نفسه ممثلاً لاسماعيل الثالث ، آخر سلالة الصفويين ليس غير ، وكان كريم يحتفظ باسماعيل هذا اسيراً في أَبادَه . وفي عهده نعمت مدينة الورود [شيراز] بفترة اخرى من الزهو والازدهار ، لا تزال تتمثل للعيان ، حتى اليوم ، في عدد من اجمل مبانيها وأروعها . ومهما يكن من شيء ، فقد انقسمت قبيلته على نفسها ، بعد وفاته ، وغدت طعاماً لنار العصبيات الدامية التي مهدت سبيل العرش ، كما سنرى بعدُ ، للقاجار .

واتاح انحطاط الدولة الفارسية السياسي عهداً طويلاً من السلم للامبراطورية العثمانية لم يعكر عليها صفوه احد ، حتى جاراتها الاوروبيات انفسهنّ . وفي سنة ١٧٥٧ رقيَ العرش سلطان مقتدر هو مصطفى الثالث ، وقد ترك امر الحكم ، في السنوات الاولى من عهده ، لكبير وزرائه راغب باشا الذي وُفق ، حتى وفاته سنة ١٧٦٣ ، الى ان يقرّ النظام في مالية الدولة ، والى ان يصون الجيش من التفسخ والانحلال . وكان فردريك الكبير يرجو ان يفيد من مساعدته لحمل الباب العالي على أن يشنّ هجوماً على النمسا اثناء حرب السنوات السبع ، وبالفعل ُعقدت بين الدولة العثمانية وبروسيا معاهدة صداقة في ٢٩ آذار سنة ١٧٦١ . ولكن السلطان أبى ، بدافع من حبه للسلام وبتأييد من العلماء ، أن يتدخل في هذه الحرب او يشارك فيها .

الحروب الروسية التركية

والحق ان نشوء المسألة البولندية هو الذي حمل الباب العالي

على أن يشارك -- كرة أخرى - مشاركة ناشطة في السياسة الاوروبية . وتفصيل ذلك أن استانبول وقفت من محاولة كاترينا الى اضعاف بولندة موقف المتفرج ، باديء الأمر ، على الرغم من أن الروسيا كانت تساعد الكرج ايضاً على العثمانيين ، وتثير المشكلات والمتاعب في وجه صاحب القرم ، ويلقب بالخان . ولكن حزب الائتلاف * في بولندة نجح آخر الأمر في حمل السلطان على الدفاع عن نفوذه في الشمال الشرقي . حتى إذا جرى تدمير مدينة بالطة على حدود بسارابيا سارع المفتي ، رغم تعلق زملائه بأهداب السلام ، الى الافتاء بضرورة الحرب ضد الروسيا.

عندئذ دفعت الدولة ثمن إهمالها المتطاول للجيش . فقد أنزلت القوات الروسية الهزيمة بالتتار القرميين الذين افتتحوا الحملة بقيادة خان القرم كراي ، ثم استولت على خوتين ، بينا كان الجيش العثماني مرابطاً في دوبرُجه . وفي سنة ١٧٧٠ تقدم الروس عبر البغدان والافلاق الى أن بلغوا نهر الدانوب (الطونة) واحتلوا كيليا وبندر وإبرائيل ** بعد أن أخذوا من النبلاء الرومانيين يمين الولاء لكاترينا . وفي هذه الاثناء ظهر في بحر إيجه ، لأول مرة ، أسطول روسي عهد اليه في مهمة شاقة هي إشعال الثورة في اليونان ودعم الثوار ضد الباب العالي . وهكذا احتل القرصان الايجيون عدداً من المواقع الحصينة في الموره ، ولكنهم لم يحسنوا الاحتفاظ بها . وفي تموز سنة ١٧٧٠ وفق الروس الى إضرام النار

Confederation Party. *

Braila **

في الاسطول العثماني، في خليج چشمه ، على ساحل آسية الصغرى. وخيف على استانبول نفسها من هجوم مفاجيء ، ولكن الروس لم يستغلوا انتصارهم هذا .

وسجلت السنة التالية نصراً آخر كبيراً للروس . فقد استطاعوا بعد هجوم استولوا فيه على يرقوب ، أن يخضعوا شبه جزيرة القرم . والواقع أن وساطة بروسيا والنمسا ، التي تنازل الباب العالي لقاءها عن جميع مطالبه في بولندة، ما لبثت أن أدت الى عقد هدنة بين الفريقين المتنازعين ، في حزيران سنة ١٧٧٢ . ولكن الفريقين لم يستطيعا الانتهاء الى اتفاق في ما يتصل بالحصون القائمة على البحر الأسود ، بالرغم من استعداد الباب العالي للتنازل عن شبه جزيرة القرم نفسها . وكان العثمانيون قد أعادوا ، خلال ذلك ، تنظيم جيشهم حتى لقد صار في ميسورهم أن يصدوا هجوم الروس في البلقان . ثم إن الروس اضطروا الى أن يرفعوا الحصار عن سلستره و «وارنه» والى أن ينسحبوا ، في أواخر سنة ١٧٧٣ ، عبر الدانوب (الطونة) . وكان السلطان قد اعتزم أن يتولى قيادة الجيش بنفسه ، ولكنه ما لبث أن مات في ٢٤ كانون الأول ١٧٧٣ بسبب من مرض ألمّ به .

ورقي عرش السلطنة من بعده أخوه عبد الحميد ولم يكن ذا شأن . وفي تموز سنة ١٧٧٤ سقط الصدر الأعظم محسن زاده في كمين نصب له عند شُملا ، ففقد القسم الأعظم من قواته ، عن طريق الفرار من الخدمة العسكرية ، وكذلك اضطر الى ان يلتمس الهدنة من الفيلد مارشال رومیانزوف . وفي كوچك

قينارجه ، جنوبي سلستره ،وقعت معاهدة الصلح بين الفريقين في ٢٢ تموز ١٧٧٤ . والواقع ان الباب العالي تنازل في هذه المعاهدة عن اعظم قلاع البحر الاسود شأناً (كَرْچ ويني قلعة « يكي قلعة » وقِين بروني)، وتخلى للروسيا عن قَبَرْطه (قبرطاي) الكبرى والصغرى في القبق (القوقاز) ، ومنح اسطولها حق المرور في الدردنيل . ليس هـذا فحسب ، بل لقد أكره فوق ذلك على الاعتراف باستقلال التتار في شبه جزيرة القرم ، وعلى منح العفو العام وحرية العبادة لسكان البغدان والافلاق . وكان اعتبار الباب العالي قد هبط في اوروبة الى حدّ بدا معه وكأن طرد العثمانيين منها بات مسألة وقت . وافادت النمسا من هذه المحنة ، فسلخت بوُقووينه (بوكوڤينا) عن جسم الدولة، بعد عقد معاهدة الصلح مباشرة ، متذرعة بحجة واهية ، فلم يستطع الباب العالي لها دفعاً . وفي سنة ١٧٨٣ أخضعت كاترينا التتار ، فقضت بذلك نهائياً على استقلال شبه جزيرة القرم . ثم ان السلطان أكره على اقرار هذا ايضاً في معاهدة « آيِينه لي قَواق » سنة ١٧٨٤

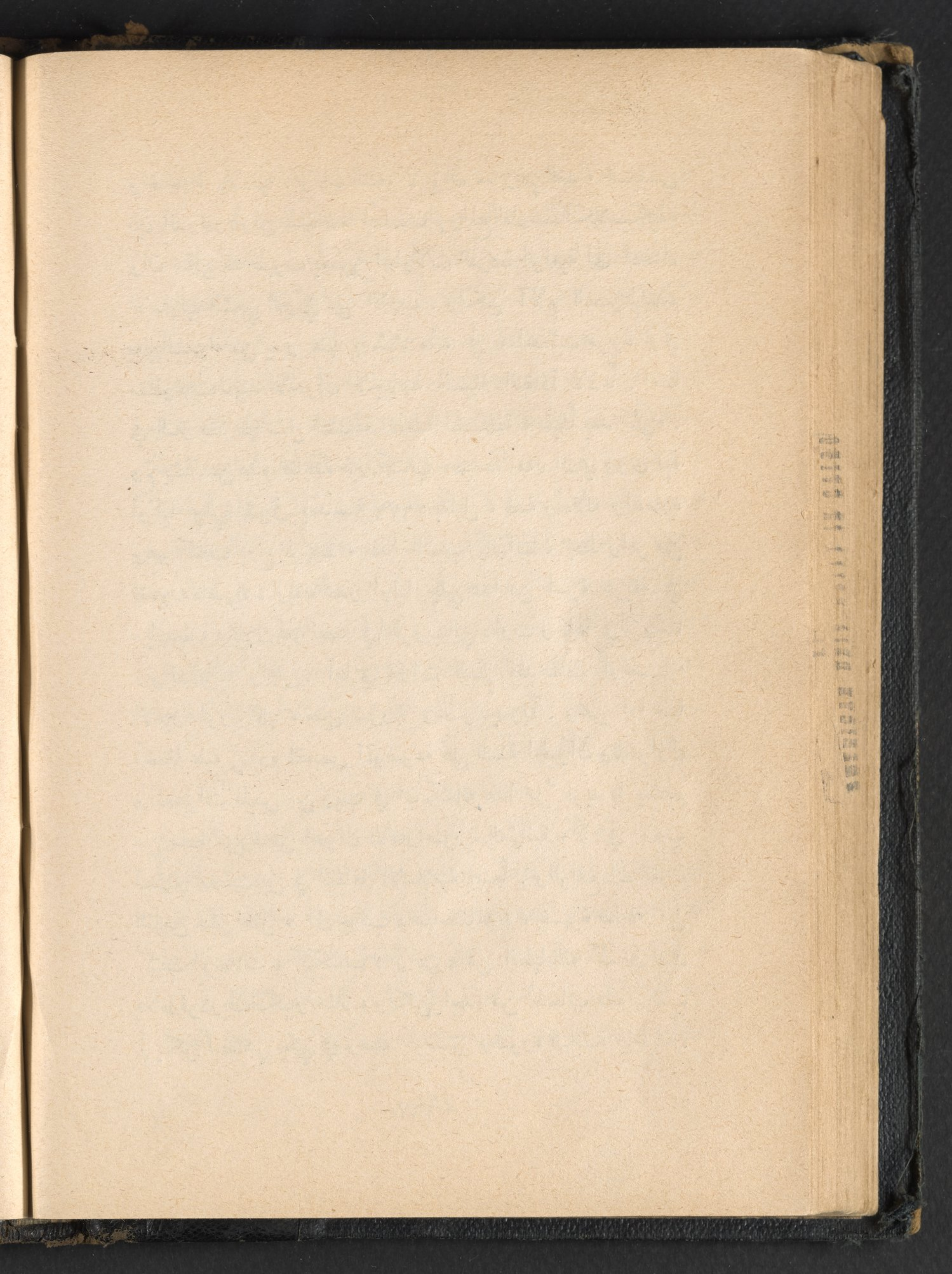
وما عتمت الفرصة ان سنحت للباب العالي للتعويض بما فقده في حربه مع الروسيا . ذلك بان اهل القبق (القوقاز) من مسلمين ومسيحيين ، ثاروا في العام نفسه (١٧٨٤) على هرقل امير الكرج المستظل بحماية كاترينا . ولكن محاولة الباب العالي استرداد شبه جزيرة القرم تحطمت على صخرة قيادة « سوڤوروف » المتفوقة . فقد استطاع هذا القائد ان يدافع دفاعاً ناجحاً عن قِين بروني ، حتى اذا كان شهر كانون الاول سنة ١٧٨٨ شن الهجوم

على أجا ُقوف وبعد ان تم تحطيم الاسطول العثماني في الصيف المنصرم ، على شواطىء القرم . وفي شباط من السنة نفسها اعلن جوزف الثاني امبراطور النمسا الحرب على الباب العالي ايضاً ، ولكنّ جيوشه لم تتقدم الا تقدماً بطيئاً في الصرب وترانسلفانيا. وفيما كانت رحى هذه الحرب دائرة ، رقي العرش السلطان سليم الثالث ، في ٧ نيسان ، بعد وفاة عبد الحميد [الاول] فواصلها متكبداً خسائر جسيمة . ومهما يكن من شيء فان الخطر النمسوي لم ُيدفع ، لاول مرة ، الا بعد وفاة جوزف الثاني . ثم ان وساطة بروسيا والدول البحرية ادّت الى عقد صلح زِشْتُوَى في ٤ آب سنة ١٧٩١ ، وبموجبه احتفظ الباب العـــالي بامارات الدانوب حتى أرْسُوْوَه. وبعد قتال مستحر في بسارابيا والقرم ، وعلى الدانوب ايضاً ، أتبع صلح زشتوى بصلح وقعه الباب العالي مع الروسيا عند ياش ، في ٩ كانون الثاني سنة ١٧٩٢ ، وقضى هذا الصلح بجعل نهر الدنيستر الحدّ الفاصل بين الدولتين ، وبتنازل السلطان للروسيا عن شبه جزيرة القرم نهائياً .

الحياة العقلية في هذا العصر

وفي ختام القرن الثامن عشر اضطرت الامبراطورية العثمانية الى أن تنتقل انتقالاً كاملاً من الهجوم الى الدفاع ، وبدا واضحاً ان تنافس الدول الاوروبية هو الضمانة الوحيدة لسلامة الاراضي العثمانية في اوروبة .وقد رافق هذا الضعف السياسي الذي تردّت فيه الامبراطورية ضعفٌ موازٍ في حياتها العقلية . ذلك بأن أحداً من سلاطين هذا العهد ووزرائه لم يكن ُيعنى ، اقل العناية

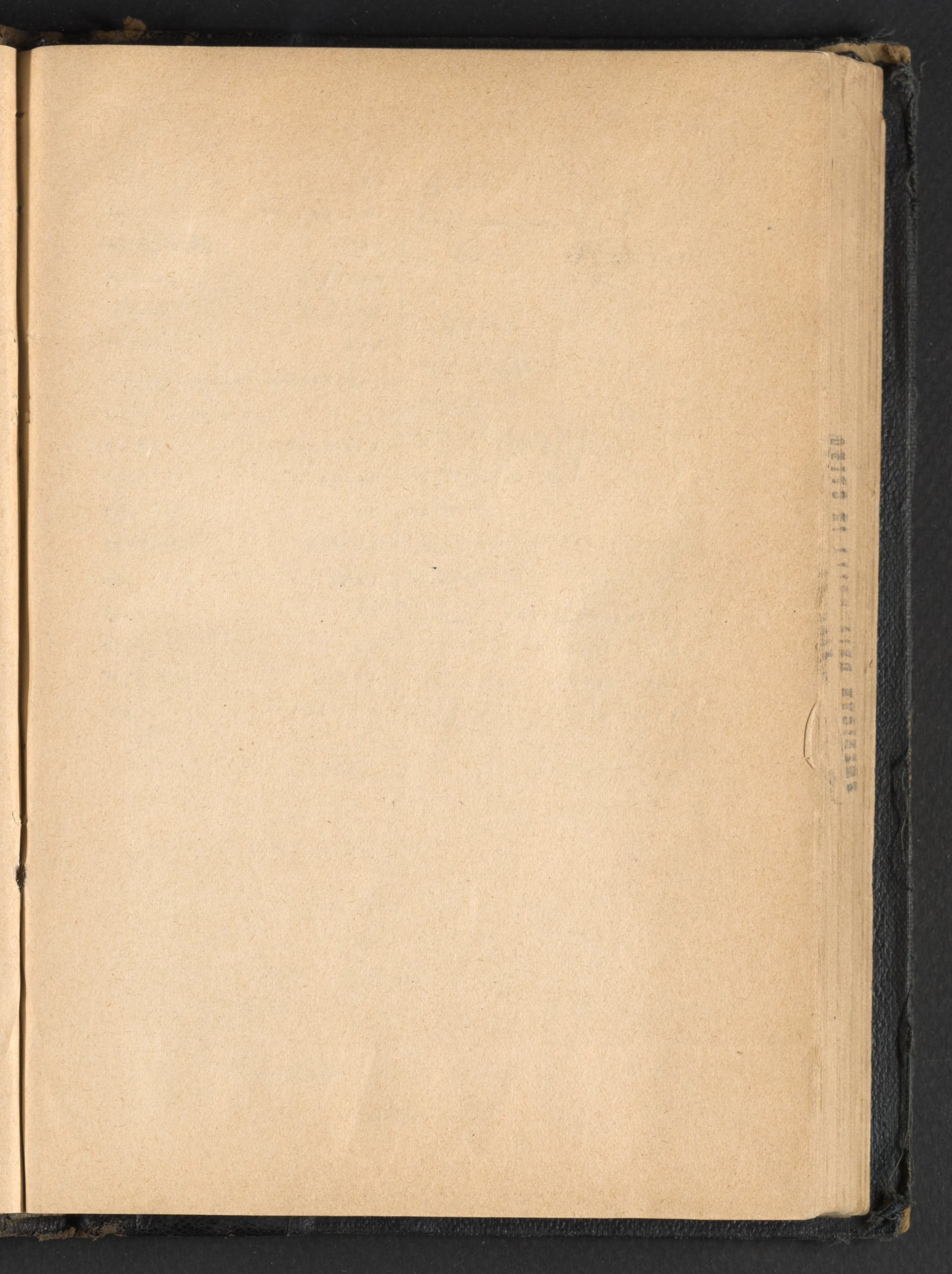
واضألها ، بالادب . وكان الشعر لا يزال – برغم العداء السياسي بين الدولة وفارس – خاضعا لسلطان الروائع الفارسية الكلاسيكية ، وان تكن قد ظهرت بعض المحاولات الفردية الرامية الى ادخال الاسلوب الشعبي التركي على الادب . ولكنّ آلام العصر لم تعدم بين الشعراء من يعبر عنها ، شيئاً ما ، في مناحات مريرة وفي مقطوعات تنتقد الاحوال الاجتماعية السيئة انتقاداً لاذعاً . اما في النثر فقد طما سيل الصناعة اللفظية المتكلفة ، شيئاً بعد شيء . ولم يشذّ عن هذه القاعدة غير كتاب «سياحتنامه» الذي روى فيه أوْليا َچلبي المتوفى بعد سنة ١٦٧٩ بقليل ، قصة رحلاته واسفاره وهو كتاب بارع لم يحظ ، لهذا السبب بالذات ، بحظ وافر من تقدير معاصريه . ولقد تحدر اوليا چلبي هذا من اسرة عريقة في الجندية ، فشارك هو نفسه في الحروب التي دارت رحاها في الروسيا وترانسلفانيا والمجر . أما في فترات السلم فقد طاف ارجاء الامبراطورية كلها ، حتى سورية ومصر جنوباً . ونحن اذا ما أخذنا عليه إيثاره للقصص الموضوعة على السنة الحيوان وللخوارق والمعجزات فليس من ريب في ان كتابه هذا عملٌ فريد بما ينتظم من مادة غزيرة عن احوال الامبراطورية العثمانية ، لا في الادب العثماني فحسب بل في الثقافة الاسلامية جميعاً . والواقع ان القرن الثامن عشر حفل ، الى جانب « سياحتنامه » ، بجمهرة صالحة من كتب الرحلات ، ككتاب « رَسمي » عن انطباعاته كسفير لدى بلاط فردريك الكبير مثلاً ، ولكنّ احداً من اصحاب هذه الكتب لم يكن ليضاهي چلبي في وصفه الرشيق وصوره النابضة بالحياة .



فهرست الأعلام

•

(چ)



محتويات الكتاب

تصويب

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٥	١٥	ارلو جامع	اولو جامع
١٧	٦	آقچه فوجه	آقچه قوجه
٤٢	١١	نغر	ثغر

١٩٤٩/٨/١١٠

